القسم الأول

فى نوادر البرامكة

الفضل بن يحيى وزائره

بينما كان الفضل بن يحيى فى مجلسه محاطًا بالوزراء والأحشاد أتاه الحاجب فقال إن بالباب رجلاً قد أكثر فى طلب الإذن وزعم أن لهُ يدًا عليك يكاد يميته كتمانها ـ فقال أدخلهُ فدخل رجل جميل رث الثياب فسلم بأفصح لسان فأومأ إليه بالجلوس فجلس فسألهُ ما حاجتك، قال هل رأيت ما أنا عليه من رثاثة الثياب وضيق ذات اليد قال أجل فما الذى لك علينا وقد كاد يقضى عليك كتمانه، قال ولادة تقرب من ولادتك وجوار يدنو من جوارك واسم مشتق من اسمك، قال أما الجوار فقد يمكن حصول ما ذكرت وقد يوافق الاسم الاسم ولكن ما علمك بالولادة، قال أعلمتنى أمى أن يوم ولادتى كان موافقًا يوم ولادتك وأن والدك سماك الفضل فسمتنى فضيلاً إعظامًا لاسمك وخشية أن ألحق بعالى مجدك فتبسم الفضل وقال: كم أتى عليك من السنين؟ قال خمس وثلاثون، قال صدقت هذا المقدار الذى أتيت عليه فما حال أمك، قال توفيت رحمها الله، قال فما منعك عن اللحوق بنا فيما مضى، قال لم أرض بمقابلتك فى زمن حداثة يقعدنى عن لقاء الملوك، قال: يا غلام أعطه لكل عام من سنيه ألفًا وأعطه من كسوتنا ومراكبنا ما يصلح لهُ فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانه وخاصة أهله.

* * *

يحيى بن خالد وأحد التجار

اعترض الفضل بن يحيى بن خالد فى وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان شخص إلى الكوفة فأخذ بعنان دابة الفضل وقال:

سأرسل بيتًا ليس فى الشعر مثلهُ يقطع أعناق البيوت الشواردِ
أقام الندى والبأس فى كل منزل أقام بهِ الفضل بن يحيى بن خالد

فأمر لهُ بمائة ألف درهم.

* * *

مروان بن أبى حفصة وزبيدة ابنة جعفر

قال أبو الجنوب مروان بن أبى حفصة أبياتًا ورفعها إلى زبيدة ابنة جعفر يمتدح ابنها محمدًا وفيها يقول:

لله درّك يا عقيلة جعفر ماذا ولدت من العلا والسؤددِ
إن الخلافة قد تبين نورها للناظرين على جبين محمدِ

فأمرت أن يملأ فمه درًا.

* * *

الفضل بن يحيى وأبو على بن الجهم

قال أبو على بن الجهم: أصبحت يومًا وأنا فى غاية من الضيقة ما أهتدى إلى دينار ولا درهم ولا أملك إلا دابة عجفاء، وخادمًا خلقًا وطلبت الخادم فلم أجده ثم جاء فقلت أين كنت؟ فقال فى اجتهاد شيءٍ لك وعلف لدابتك فوالله ما قدرت عليهِ فقلت أسرج لى دابتى فأسرجها فركبت فلما صرت فى سوق يحيى إذا أنا بموكبٍ عظيم وإذا الفضل بن يحيى فلما أبصرنى قال سر فسرت قليلاً وحجز بينى وبينهُ غلام يحمل طبقًا على باب ينادى جارية فوقف الفضل طويلاً، ثم قال سر فسرت، ثم قال تدرى ما سبب وقفتى، قلت إن رأيت أن تعلمنى، قال كانت لأختى جارية وكنت أحبها حبًا شديدًا وأستحى من أختى أن أطلبها منها ففطنت أختى لذلك فلما كان هذا اليوم ألبستها وزينتها وبعثت بها إلىّ فما كان من عمرى يوم أطيب من يومى هذا فلما كان هذا الوقت جاءنى رسول أمير المؤمنين فأزعجنى وقطع لذتى ولما صرت إلى هذا المكان دعا هذا الغلام صاحب الطبق باسم تلك الجارية فارتحت إلى

ندائه، فقلت أصابك ما أصاب أخا بنى عامرٍ حيث قال:

وداعٍ دعى إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى
دعى باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

فقال، اكتب لى هذين البيتين فعدلت لأطلب ورقة أكتب له هذين البيتين فيها فلم أجد فرهنت خاتمى عند بقالٍ وأخذت ورقة وكتبتهما وأدركته بها، فقال لى ارجع إلى منزلك فرجعت ونزلت، فقال لى الخادم أعطنى خاتمك أرهنهُ على قوتنا، فقلت قد رهنتهُ فما أمسيت حتى بعث لى بثلاثين ألف درهم جائزة وعشرة آلاف سلفًا عن شهر برزق أجراه لى فى كل شهر.

* * *

جعفر والرشيد

لما غضب الرشيد على البرامكة أصيب فى خزانة الجعفر جرة فيها ألف دينار ونيف كل دينار منها وزنه مائة مثقال ومثقال على أحد جانبى كل دينار منها مكتوب:

واصفر من ضرب دار الملوك يلوح على وجههِ جعفرُ
يزيدُ على مائةٍ واحدٌ متى تعطهِ معسراً يوسرُ

* * *

ابن العلوىّ والفضل

قال عبد الله بن العلوىّ: أتيت الفضل بن يحيى فأكرمنى وأجلسنى معه على فراشهِ فكلمتهُ فى دينى ليكلم أمير المؤمنين فى قضائه عنى، قال وكم دينك، قلت ثلاثمائة ألف درهم، قال نعم، فخرجت من عنده وأنا مغموم لضعف ردِّه على فمررت ببعض إخوانى مستريحًا إليهِ ثم صرت إلى منزلى فوجدت المال قد سبقنى من ماله خاصةً.

* * *

هبات الفضل بن يحيى

وهب الفضل لطباخه مائة ألف درهم فعاتبه أبوه فى هذا، فقال إن هذا صحبنى وأنا لا أملك شيئًا واجتهد فى نصيحتى وقال الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
من كان يصحبهم فى المركب الخشنِ

* * *

أبان بن عبد الحميد مع البرامكة

قيل: إن أبان بن عبد الحميد الشاعر مولى بنى (رقاش) قدم بغداد واتصل بالبرامكة وعمل كتاب كليلة ودمنة شعرًا وله قصائد ومدائح فى الرشيد والفضل بن يحيى.

ويقال إن كل كلام نقل إلى الشعر فالكلام أفصح منهُ إلا هذا وأول قصيدتهِ هذه قولهُ:

هــذا كتـاب أدب ومحنه وهو الذى يدعى كليلة ودمنه

وعددها أربعة عشر ألف بيت مزدوجة فى ثلاثة أشهر قال فأعطاه يحيى ابن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاهُ الفضل خمسة آلاف دينار، فتصدق بثلث المال الذى أخذه.

* * *

حسن شمائل يحيى بن خالد

من كلامهِ: إن من بلغ رتبة فتاه بها فاعلم أن محلهُ دونها، وقال يدل على كرم المرء سوء أدب غلمانه، وقال لابنه خذ من كل علم طرفًا فإن من جهل شيئًا عاداه، وقال ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها الهدية والكتاب والرسول وكان يقول لأولاده اكتبوا أحسن ما تسمعون واحفظوا أحسن ما تكتبون وتحدثوا بأحسن ما تحفظون، وكان يقول إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها

لا تغنى وإذا ولت فأنفق فإنها لا تبقى وإليه أشار الشاعر:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طرًا قبل أن تتفلَّتِ
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ولا البخل يبقيها إذا هى ولَّتِ

وكان صِلات يحيى إذا ركب بأن يعرض لهُ فى طريقهِ مائتا درهم فركب ذات يوم فعرض له أديب شاعر فقال له:

يا سمىَّ الحصور يحيى أتيحت لك من فضل ربنا جنتان
كل من مرَّ فى الطريق عليكم فله من نوالكم مائتان
مائتا درهم لمثلى قليلٌ هى منكم للعابر العجلانِ

قال يحيى: صدقت فأمر بحملهِ إلى دارهِ، فلما رجع من دار الخليفة سألهُ عن حالهِ، فذكر له أنه كان تزوَّج وحلف بواحدة من ثلاث إما أن يؤدى المهر وهو أربعة آلاف وإما أن يطلق وإما أن يقيم مجريًا للمرأة ما يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها، فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر وأربعة آلاف ثمن منزل وأربعة آلاف للبنية وأربعة آلاف لما يحتاج إليه وأربعة آلاف ليستظهر بها فأخذ عشرين ألف درهم.

* * *

مديح يحيى بن خالد

وكان يحيى بن خالد يجرى على سفيان بن عيينة كل نهار ألف درهم فلما مات يحيى كان سفيان يقول فى سجوده: اللهم إن يحيى بن خالد كفانى أمر دنياى فاكفِهِ أمر آخرتهِ.

* * *

حديث البرامكة فى السجن

قال ابن خالد البرمكى لأبيهِ يحيى وهم فى القيود ولبس الصوف والحبس يا أبتاه بعد الأمر والنهى والأموال العظيمة أصارنا الدهر إلى القيود ولبس الصوف والحبس فقال لهُ أبوه يا بنى دعوة مظلوم سرت بليل غفلنا عنها ولم

يغفل الله عنها ثم أنشأ يقول:

ربّ أقوامٍ غدوا فى نعمة زمنًا والدهـر ربَّانٌ غـدَق
سكت الدهر زمانًا عنهمُ ثم أبكاهم دمًا حين نطق

* * *

جعفر البرمكى وأحمد بن جنيد

قال أحمد بن جنيد الإسكافى وكان أحضر الناس بجعفر البرمكى خص فكان الناس يقصدونه فى حوائجهم إلى جعفر، وإن رقاع الناس كثرت فى خف أحمد بن الجنيد فلم تزل إلى أن تهيأ له الخلوة بجعفر، فقال له: جعلنى الله فداءَك قد كثرت رقاع الناس معى وأشغالك كثيرة وأنت اليوم خال فإن رأيت أن تنظر فيها، قال لهُ جعفر على أن تقيم عندى اليوم فقال نعم وصرف دوابه وأقام عندهُ فلما تغذوا جاءهُ بالرقاع فقال له هذا وقت راحة فدعنا اليوم، فأمسك عنهُ وانصرف فلم ينظر فى الرفاع، فلما كان بعد أيام خلا بهِ فأذكرهُ، فقال نعم على أن تقيم عندى اليوم فأقام عنهُ، ففعل بهِ مثل الفعل الأول حتى فعل بهِ ذلك ثلاثًا، فلما كان فى آخر يوم أذكرهُ فقال دعنى الساعة وناما، فانتبه جعفر قبل أحمد بن الجنيد فقال لخادمٍ لهُ اذهب إلى خف أحمد فجئنى بكل رقعة فيهِ ولا يعلمهُ أحمد فذهب الغلام وجاءَ بالرقاع فوقع جعفر فيها عن آخرها بخطهِ بما أحب أصحابها ووكد ذلك ثم أمر الغلام أن يردها إلى الخف فردها فانتبه أحمد فلم يقل لهُ فيها شيئًا وانصرف بها أيامًا، قال أحمد بن جنيد لكاتبهِ ويحك هذه الرقاع قد أخلقت خفى وهذا ليس ينظرها فتصفحها وجدّد ما أخلق منها، فأخذها الكاتب فنظر فيها فوجد الرقاع موقعًا عليها بما سأل أصحابها وأكثر فتعجب من كرمهِ ونبل أخلاقه ومن أنه قضى حاجتهُ ولم يعلم بها لئلاً يظن أنهُ اعتد بها عليهِ.

* * *

جود خالد بن برمكِ

روى الجاحظ قال: كان أصحابنا يقولون لم يكن يرى لجليس خالد بن برمك دارًا إلا خالد قد بناها ولا ضيعة إلا وهو قد اشتراها ولا ولدًا إلا وهو اشترى أمهُ إن كانت أمة وأمهرها إن كانت حرة ولا دابة إلا هى من دوابه، وكان خالد البرمكى أول من سمى أهل الاستماحة والاسترفاد الزوار فقال بعض من قصدهُ:

حذا خالد فى جوده حذو برمك ... فمجـــد لهُ مستطرف وأثيـل
وكانوا بنو الإعدام يدعـون قبلهُ ... بلفظ على الإعـدام فيهِ دليل
يسمـون بالسؤَال فى كل موطن ... وإن كـــان فيهم نابهٌ وجليـل
فسمـــاهم الزُّوار سترًا عليهم ... وإستـــاره فى المجتدين سدول

* * *

العطايا الثلاث التى وهبها الرشيد ويحيى وولداه

حج هارون الرشيد مرة ومعه يحيى بن خالد وولداه الفضل وجعفر، فلما وصلوا إلى المدينة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس، فأعطوا فى تلك السنة ثلاث أعطيات ضربت بكثرتها الأمثال، وكانوا يسمونه عام الأعطيات الثلاث وأثرى الناس بسبب ذلك.

* * *

الفضل بن يحيى والشاعر

ولاه الرشيد خراسان فخرج إليه أبو الهول الشاعر مادحًا معتذرًا من شعر كان هجاه بهِ فأنشده:

سرى نحوه من غضبة الفضل عـارض
لهُ لجـة فيهـا البـوارق والرعـــدُ

وكيف ينام الليل ملق فراشهُ
على مدرج يعتاده الأسد الوردُ
وما لى إلى الفضل بن يحيى بن خالد
من الجرم ما يخشى على مثله الحقدُ
فجد بالرضى لا أبتغى منك غيره
ودأبك فيما كنت عودتنى بعدُ

فقال له الفضل: لا أحتمل تفريقك بين رضاى وإحسانى وهما مقرونان فإن أردتهما معًا وإلا فدعهما معًا، ثم وصلهُ ورضى عنهُ.

* * *

الفضل وإسحاق الموصلى والجارية

حدث إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال: كنت قد ربيت جارية وثقفتها وعلمتها حتى برعت ثم أهديتها إلى الفضل بن يحيى، فقال لى يا إسحاق إن رسول صاحب مصر قد ورد إلىّ يسألنى حاجة أقترحها عليه فدع هذه الجارية عندك فإنى سأطلبها وأعلمه أنى أريدها فإنهُ سوف يحضر إليك ويساومك فيها فلا تأخذ فيها أقل من خمسين ألف دينار. قال إسحاق: فمضيت بالجارية إلى منزلى فجاء إلى رسول صاحب مصر وسألنى عن الجارية فأخرجتها إليه، فبذل فيها عشرة آلاف دينار فامتنعت، فصعد إلى عشرين ألف دينار فامتنعت، فصد إلى ثلاثين ألفًا فما ملكت نفسى حتى قلت له بعتك وسلمت الجارية إليه وقبضت المال، ثم إننى أتيت من الغد إلى الفضل بن يحيى فقال: يا إسحاق بكم بعت الجارية، قلت بثلاثين ألف دينار، قال ألم أقل لك لا يأخذ منهُ أقل من خمسين ألفًا، قلت فداك أبى وأمى والله ما ملكت نفسى منذ سمعت لفظة ثلاثين، فتبسم ثم قال: إن رسول صاحب الروم قد سألنى أيضًا حاجة وسأقترح عليه هذه الجارية وأدلهُ عليك فخذ جاريتك وانصرف إلى منزلك فإذا ساومك فيها فلا تأخذ منهُ أقل من خمسين ألف دينار.

فأخذت الجارية وانصرفت إلى منزلى، فأتانى رسول صاحب الروم وساومنى فى الجارية، فطلبت خمسين ألفًا فقال: هذا كثير ولكن تأخذ منى ثلاثين ألفًا: فوالله ما ملكت نفسى منذ سمعت لفظة ثلاثين ألفًا حتى قلت لهُ بعتك، ثم قبضت المال منهُ وسلمت الجارية إليه، ومضيت من الغد إلى الفضل بن يحيى فقال: ما صنعت وبكم بعت الجارية يا إسحاق، قلت بثلاثين ألفًا، فقال سبحان الله ما أوصيتك أن لا تأخذ فيها أقل من خمسين ألفًا، قلت جعلت فداك والله إنى لما سمعت قولهُ ثلاثين ألفًا استرخت جميع أعضائى، فضحك وقال خذ جاريتك واذهب إلى منزلك ففى غدٍ يجىء إليك رسول صاحب خراسان فقوّ نفسك ولا تأخذ منه أقل من خمسين ألفًا.

قال إسحاق: فأخذت الجارية ومضيت إلى منزلى، فجاءنى رسول صاحب خراسان وساومنى فيها فطلبت خمسين ألفًا فقال لى هذا كثيرٌ ولكن تأخذ ثلاثين ألفًا فقويت نفسى وامتنعت، فصعد معى إلى أربعين ألف دينار، فكاد عقلى يذهب من الفرح ولم أتمالك أن أقول له بعتك، فأحضر المال وأقبضنيه وسلمت الجارية إليه، ومضيت من الغد إلى الفضل فقال لى: بكم بعت الجارية، قلت بأربعين ألفًا، ووالله لما سمعتها منه كاد عقلى يذهب، وقد حصل عندى جعلت فداك مائة ألف دينار ولم يبق لى أمل فأحسن الله جزاءك، فأمر بالجارية فأخرجت إلىّ وقال: يا إسحاق خذ جاريتك وانصرف، قال إسحاق: فقلت هذه الجارية والله أعظم الناس بركة فأعتقتها وتزوجتها فولدت لى أولادى.

* * *

عمر بن العباس والفضل

قيل: إن محمد بن العباس حضر يومًا عند الفضل بن يحيى ومعه سفط فيه جوهر وقال له: إن حاصلى قد قصر عما أحتاج إليه وقد علانى دين مقداره ألف ألف درهم وإنى أستحى أن أعلم أحدًا بذلك وآنف أن أسال أحدًا من التجار أن يقرضنى ذلك وإن كان معى رهن يفى بالقيمة، أبقاك الله

لك تجار يعاملونك، وأنا أسالك أن تقرض لى من أحدهم هذا المبلغ وتعطيه هذا الرهن فقال له الفضل السمع والطاعة ولكن تقضى هده الحاجة أن تقيم عندى اليوم فأقام عنده، ثم إن الفضل أخذ السفط منهُ وهو مختوم بختمه وأرسل معهُ ألف ألف درهم وأنفذ الدراهم والسفط إلى منزله وأخذ خط وكيله بقبصه، فأقام محمد فى دار الفضل إلى آخر النهار، ثم انصرف إلى داره فوجد السفط ومعه ألف ألف درهم، فسرَّ بذلك سروراً عظيمًا، فلما كان من الغد بكر إلى الفضل ليشكره على ذلك فوجده قد بكر إلى دار الرشيد، فمضى محمد إلى دار الرشيد فحين علم به خرج بباب آخر ومضى إلى منزله، فمضى محمد إليه واجتمع به وشكره على فعله وقال: إنى بكرت إليك لأشكرك على إحسانك فقال لهُ الفضل: إنى فكرت فى أمرك فرأيت أن هذه الألف ألفًا التى حملتها أمس إليك تقضى بها دينك ثم تحتاج إليه فتقترض فبعد قليل يعلوك مثلها، فبكرت اليوم إلى أمير المؤمنين وعرضت عليه حالك وأخذت لك منه ألف ألف درهم أخرى فلما حضرت إلى باب أمير المؤمنين خرجت أنا بباب آخر وكذلك فعلت لما حضرت إلى باب أبى لأنى ما كنت أوثر أن ألقاك حتى يحمل المال إلى منزلك وقد حمل فقال له محمد بأى شىء أجازيك على هذا الإحسان ما عندى شىء أجازيك به إلاَّ أنى ألتزم بالأيمان المؤكدة وبالطلاق والعتاق والحج إنى ما أقف على باب غيرك ولا أسأل سواك، قيل: وحلف محمد أيمانًا مؤكدة وكتب بها خطهُ وأشهد به عليه أن لا يقف بباب غير الفضل بن يحيى، فلما ذهبت دولة البرامكة وتولى الفضل بن الربيع الوزارة بعدهم احتاج محمد فقالوا لهُ لو ركبت إلى الفضل بن الربيع فلم يفعل والتزم باليمين فلم يركب إلى أحد ولم يقف على باب أحد حتى مات.

* * *

جعفر وعبد الملك بن صالح بن العباس

قيل: إن جعفر بن يحيى البرمكى جلس يومًا للشرب وأحب الخلوة، فأحضر ندماءَهُ الذين يأنس بهم وجلس معهم وقد هيئ المجلس ولبسوا الثياب المصبغة وكانوا إذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر ثم إن جعفر بن يحيى تقدم إلى الحاجب أن لا يأذن لأحد من خلق الله تعالى سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم اسمهُ عبد الملك بن صالح، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات وخفقت العيدان وكان رجل من أقارب الخليفة يقال لهُ عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس وكان شديد الوقار والدين والحشمة، وكان الرشيد قد التمس منهُ أن ينادمهُ ويشرب معهُ وبذل له على ذلك أموالاً جليلة فلم يفعل فاتفق أن هذا عبد الملك بن صالح حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه فى حوائج لهُ، فظن الحاجب أنهُ هو عبد الملك بن صالح الذى تقدم جعفر ابن يحيى بالإذن لهُ وأن لا يدخل غيره فأذن الحاجب لهُ فدخل عبد الملك بن صالح العباس على جعفر بن يحيى، فلما رآه جعفر كاد عقلهُ أن يذهب من الحياء وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم وفطن عبد الملك بن صالح أيضًا للقصة وظهر له الخجل فى وجه جعفر بن يحيى، فانبسط عبد الملك وقال: لا بأس عليكم أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئًا، فأحضر لهُ قميص مصبوغ فلبسهُ وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحهُ وقال: اسقونا من شرابكم فسقوة رطلاً وقال: ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا، ثم باسطهم ومازحهم وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضهُ وحياؤه، ففرح جعفر بذلك فرحًا عظيمًا وقال له ما حاجتك، قال جئت أصلحك الله فى ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة فيها، أولها أن علىّ دينًا مبلغهُ ألف ألف درهم أريد قضاءَه، ثانيًا أريد ولاية لابنى يشرف بها قدره، وثالثها أريد أن تزوج ولدى بابنة الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفء لها، فقال جعفر بن يحيى: قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث: أما المال ففى

هذا المساء يحمل إلى منزلك وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر، وأما الزواج فقد زوجتهُ فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا فانصرف فى أمان الله، فراح عبد الملك إلى منزلهِ، فرأى المال قد سبقهُ، ولما كان من الغد حضر عند الرشيد وعرفهُ ما جرى وإنهُ قد ولاه مصر وزوجهُ ابنتهُ، فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية، فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب لهُ التقليد بمصر وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد.

* * *

فى المكافأة

قال الحسن بن سهل: كنت يومًا عند يحيى بن خالد البرمكى وقد خلى فى مجلسهِ لإحكام أمر من أمور الرشيد، فبينما نحن جلوس إذ دخل عليهِ جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم، ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قيامًا أحمد بن أبى خالد الأحول فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه وقال: يا بنى إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثًا فإذا فرغت من شغلى هذا فذكرنى أحدثك فلما فرغ من شغلهِ وطعم قال لهُ ابنهُ الفضل: أعزك الله يا أبى أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الأحول، قال نعم يا بنى لما قدم أبوك من العراق أيام المهدى كان فقيرًا لا يملك شيئًا فاشتد بهِ الأمر إلى أن قال لى من فى منزلى إن كتمنا حالنا زاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شىء نقتات به، قال: فبكيت لذلك يا بنى بكاءً شديدًا، وبقيت ولهان حيران مطرقًا مفكرًا ثم تذكرت منديلاً كان عندى فقلت لهم: ما حال المنديل، فقالوا هو باقٍ عندنا، فقلت ادفعوه إلىّ، فأخذتهُ ودفعتهُ إلى بعض أصحابى وقلت لهُ: بعه بما يسر فباعه بسبعة عشر درهمًا، فدفعتها إلى أهلى وقلت اقفوها إلى أن يرزق الله غيرها ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدى فإذا الناس وقوفًا على داره ينتظرون خروجه فخرج عليهم فلما رآنى سلم على وقال: كيف حالك، فقلت يا أبا خالد ما صنع منزلهِ بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهمًا فنظر إلىَّ نظرًا شديدًا ما أجابنى

جوابًا، فرجعت إلى أهلىَ كسير القلب وأخبرتهم ما اتفق لى مع أبى خالد، فقالوا بئس والله ما فعلت، توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك فأزريت عنه بنفسك وصغرت عنه منزلتك بعد أن كنت عنده جليلاً، فما يراك بعد اليوم إلاَّ بهذه العين، فقلت قد قضى الأمر الآن بما يمكن استدراكه، فلما كان من الغد بكرت إلى الخليفة فلما بلغت الباب استقبلنى رجل فقال لى: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين، فلم ألتفت لقوله، فاستقبلنى آخر فقال لى كمقالة الأول، ثم استقبلنى حاجب أبى خالد فقال لى: أين تكون قد أمرنى أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين، فجلست حتى خرج، فلما رآنى دعانى وأمر لى بمركوب فركبت وسرت معهُ فى منزلهِ فلما نزل قال علىّ بفلانٍ وفلان الحناطين فأحضرا فقال لهما ألم تشتريا منى غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم قالا نعم، قال ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما، قالا بلى. قال هو هذا الرجل الذى اشترطت شركتهُ لكما، ثم قال لى: قم معهما، فلما خرجنا قالوا لى: ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون فيهِ الربح الهنىء، فدخلنا مسجدًا فقالا لى: إنك تحتاج فى هذا الأمر إلى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شىء فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجلهُ لك فتنتفع به ويسقط عنك التعب والكلف، فقلت لهما وكم تبذلان لى، فقالا مائة ألف درهم، فقلت لا أفعل، فما زالا يزيدانى وأنا لا أرضى إلى أن قالا لى ثلاثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا فقلت حتى أشاور أبا خالد، قالا ذلك لك، فرجعت إليهِ وأخبرتهُ فدعا بهما وقال لهما هل وافقتماه على ما ذكر، قالا نعم، قالا اذهبا فقبضاه المال الساعة، ثم قال لى أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل، فأصلحت شأنى وقلدنى ما وعدنى بهِ، فما زلت فى زيادة حتى صار أمرى إلى ما صار، ثم قال لولده الفضل: يا بنى فما تقول فى ابن من فعل بأبيك هذا الفعل وما جزاؤه، قال: حق لعمرى وجب عليك له، فقال والله يا ولدى ما أجد لهُ مكافأة غير أنى أعزل نفسى وأوليهِ، ففعل ذلك وهكذا يكون المكافأة.

سعيد بن سالم الباهلى مع الفضل وجعفر

قال سعيد بن سالم الباهلى: اشتد بى الحال فى مرض هارون الرشيد واجتمع علىَّ ديون كثيرة أثقلت ظهرى وعجزت عن قضائها وضاقت حيلى وبقيت متحيراً لا أدرى ما أصنع حيث عسر علىَّ أداؤها عسراً عظيماً، واحتاطت ببابى أرباب الديون، وتزاحم على المطالبون ولازمنى الوفاء فضاقت حيلى وازدادت فكرتى، فلما رأيت الأمور متعسرة، والأحوال متغيرة، قصدت عبد الله بن مالك الخزاعى والتمست منهُ أن يمدنى برأيه، ويرشدنى إلى باب الفرج بحسن تدبيره، فقال عبد الله بن مالك الخزاعى: لا يقدر أحد على خلاصك من محنتك وهمك وضيقك وغمك إلا البرامكة، فقلت ومن يقدر على احتمال تكبرهم ويصبر على تجبرهم، فقال تحمَّل ذلك لأجل إصلاح حالك فنهضت من عنده ومضيت إلى الفضل وجعفر ولدى يحيى بن خالد وقصصت عليهما قصتى وأبديت لهما حالتى، فقالا: أسعدك الله بعونه وأغناك عن خلقه بمنه وأجزل لك عظيم خيره وقام لك بالكفاية دون غيره إنه على ما يشاء قدير وبعبادهِ لطيف خبير.

فانصرفت من عندهما ورجعت إلى عبد الله بن مالك ضيق الصدر متحير الفكر منكسر القلب وأعدت ما قالاه، فقال ينبغى أن تقيم اليوم عندنا لننظر ما يقدره الله تعالى، فجلست عنده ساعة وإذا بغلامى قد أقبل وقال: يا سيدى إن ببابنا بغالاً كثيرة بأحمالها ومعها رجل يقول أنا وكيل الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى، فقال عبد الله بن مالك: أرجو أن يكون الفرج قد أقبل عليك فقم وانظر ما الشأن، فنهضت من عنده وأسرعت عدواً إلى بيتى، فرأيت رجلاً معه رقعة مكتوب فيها: إنك لما كنت عندنا وسمعنا كلامك توجهنا بعد خروجك إلى الخليفة وعرفناه أنه أفضى بك الحال إلى ذل السؤال فأمرنا أن نحمل إليك من بيت المال ألف درهم فقلنا لهُ هذه الدراهم يصرفها إلى غرمائهِ ويؤدى بها دينهُ ومن أين يقيم وجه نفقاته، فأمر لك بثلاثمائة ألف درهم أخرى وقد حمل إليك كل واحد منا من خالص مالهِ ألف ألف درهم

فصارت الجملة ثلاثة آلافُ ألف وثلاثمائة ألف درهم تصلح بها أحوالك وأمورك، فانظر إلى هذا الكرم العظيم.

* * *

الكتاب المزور

كان بين يحيى بن خالد وبين عبد الله بن مالك الخزاعى عداوة فى السر ما كانا يظهرانها وسبب العداوة بينهما أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان يحب عبد الله بن مالك محبة عظيمة بحيث إن يحيى بن خالد وأولاده كانوا يقولون: إن عبد الله يسحر أمير المؤمنين حتى مضى على ذلك زمان طويل والحقد فى قلوبهما، فاتفق أن الرشيد قلّد ولاية أرمينية لعبد الله بن مالك الخزاعى وسيره إليها، فلما استقرّ فى يختها قصده رجل من أهل العراق كان فيهِ فضل وأدب وذكاء وفطنة إلا أنهُ ضاق ما بيده وفنى مالهُ واضمحل حاله فزور كتابًا على يحيى بن خالد إلى عبد الله بن مالك وسافر إليهِ فى أرمينية.

فلما وصل إلى بابهِ سلم الكتاب إلى بعض حجابه، فأخذ الحاجب الكتاب وسلمهُ إلى عبد الله بن مالك الخزاعى، ففتحهُ وقرأه وتدبره فعلم أنهُ مزور فأمر بإحضار الرجل فلما تمثل بين يديهِ دعا لهُ وأثنى عليهِ وعلى أهل مجلسه، فقال لهُ عبد الله بن مالك: ما حملك مع بعد المشقة على مجيئك إلى بكتاب مزور، ولكن طب نفسًا فإننا لا نخيب سعيـك، فقال الرجل أطال الله بقاء مولانا الوزير إن كان ثقل عليك وصولى فلا تحتج فى منعى بحجة فإن أرض الله واسعة والرازق حى والكتاب الذى أوصلتهُ إليك من يحيى بن خالد صحيح غير مزور، فقال عبد الله أنا أكتب كتابًا لوكيلى ببغداد وآمره فيهِ أن يسأل عن حال هذا الكتاب الذى أتيتنى بهِ فإن كان ذلك حقًا صحيحًا غير مزور قلدتك إمارة بعض بلادى وأعطيتك مائتى ألف درهم مع الخيل والنجب الجليلة، وإن كان الكتاب مزوراً أمرت بأن تضرب مائتى خشبة وأن تحلق لحيتك ثم أمر عبد الله أن يحمل إلى حجرة وأن يجعل له فيها ما يحتاج إليهِ حتى يحقق أمره، ثم كتب كتابًا إلى وكيلهِ ببغداد مضمونه: إنه قد

وصل إلى رجل ومعهُ كتاب يزعم أنه من يحيى بن خالد وأنا أسيء الظن بهذا الكتاب فيجب أن لا تهمل هذا الأمر بل تمضى بنفسك وتتحقق أمر هذا الكتاب وتسرع إلى برد الجواد لأجل أن نعلم صدقه من كذبِه.

فلما وصل إليه الكتاب ببغداد ركب من ساعتهِ ومضى إلى دار يحيى بن خالد فوجده جالسًا مع ندمائهِ وخواصهِ، فسلم عليهِ وسلم إليهِ الكتاب، فقرأه يحيى بن خالد ثم قال للوكيل: عد إلىّ من الغد حتى أكتب لك الجواب، ثم التفت إلى ندمائهِ بعد انصراف الوكيل وقال: ما جزاء من تحمل عنى كتابًا مزورًا وذهب بهِ إلى عدوّى، فقال كل واحد من ندمائهِ مقالاً وجعل كل واحد منهم يذكر نوعًا من العذاب، فقال لهم يحيى: قد أخطأتم فيما ذكرتم وهذا الذى أشرتم بهِ من دناءَة الهمم وخستها وكلكم تعرفون منزلة عبد الله من أمير المؤمنين وتعلمون ما بينى وبينه من الغضب والعداوة: وقد سبب الله تعالى هذا الرجل وجعله واسطة فى الصلح بيننا ووفقه لذلك وقيضهُ ليخمد نار الحقد من قلوبنا وهى تتزايد من مدة عشرين سنة وتصلح واسطته شئوننا، وقد وجب علىّ أن أفى لهذا الرجل بتحقيق ظنونهِ وإصلاح شئونهِ وأكتب له كتابًا إلى عبد الله بن مالك الخزاعى مضمونه: إنه يزيد فى إكرامهِ ويستمر على إعزازه واحترامه، فلما سمع الندماء ذلك دعوا له بالخيرات وتعجبوا من كرمِه ووفور مروّته.

ثم إنهُ طلب الورقة والدواة وكتب إلى عبد الله كتابًا بخط يده مضمونه:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصل كتابك أطال الله بقاك وسررت بسلامتك وابتهجت باستقامتك وشمول سعادتك، وكان ظنك أن ذلك الرجل الحر زوّر عنى كتابًا ولم يحمل منى خطابًا، وليس الأمر كذلك فإن الكتاب أنا كتبته وليس بمزور ورجائى من إكرامك وإحسانك وحسن شيمتك أن تفى لذلك الرجل الحر الكريم بأملهِ وأمنيته وترى له حق حرمتهِ وتوصلهُ إلى غرضهِ، وأن تخصهُ منك بغامر الإحسان ووافر الامتنان، ومهما فعلتهُ فأنا المقصود به والشاكر عليه ثم عنون الكتاب وختمه وسلمه إلى الوكيل، فانقلب الوكيل إلى عبد الله، فحين قرأه ابتهج بما حواه وأحضر ذلك الرجل وقال له: أى

الأمرين اللَّذَيْنِ وعدتك بهما أحب إليك لأحضره لك بين يديك، فقال الرجل: العطاء أحب إلى من كل شيءٍ، فأمر لهُ بمائتى ألف درهم وعشرة أفراس عربية خمسة منها بالجلال الحرير وخمسة بمروج المواكب المحلاة، وبعشرين تختًا من الثياب وعشرة من المماليك ركاب خيل وما يليق بذلك من الجواهر الثمينة، ثم خلع عليهِ وأحسن إليهِ ووجههُ إلى بغداد فى هيئة عظيمة.

فلما وصل إلى بغداد قصد دار يحيى بن خالد قبل أن يصل إلى أهلِه وطلب الإذن فى الدخول عليهِ، فدخل الحاجب إلى يحيى وقال لهُ: يا مولاى إن ببابنا رجلاً طاهر الحشمة جميل الخلقة حسن الحال كثير الغلمان يريد الدخول عليك، فأذن لهُ بالدخول، فلما دخل عليهِ قبل الأرض بين يديهِ، فقال لهُ يحيى: من أنت، فقال لهُ الرجل: أيها السيد أنا الذى كنت ميتًا من جور الزمان فأحييتنى من رمس النوائب وبعثتنى إلى جنة المطالب، أنا الذى روّرت كتابًا عنك وأوصلتهُ إلى عبد الله بن مالك الخزاعى، فقال لهُ يحيى: ما الذى فعل معك وأى شيءٍ أعطاك فقال أعطانى من يدك وجميل طويتك وشمول نعمك وعموم كرمك وعلو همتك وواسع فضلك حتى أغنانى وخولنى وهدانى، وقد حملت جميع عطيته ومواهبه وها هى ببابك والأمر إليك والحكم فى يدك، فقال لهُ يحيى: إن صنيعك معى أجمل من صنيعى معك ولك على المنة العظيمة واليد البيضاءَ الجميمة، حيث بدلت العداوة التى كانت بينى وبين ذلك الرجل المحتشم بالصداقة والمودة، فها أنا أهب لك من المال مثل ما وهب لك عبد الله بن مالك، ثم أمر لهُ من المال والخيل والتخوت بمثل ما أعطاه عبد الله، فعادتِ لذلك الرجل نعمتهُ كما كانت بمروءة هذين الكريمين.

* * *

شاعر البرامكة وأبو نواس

حدث ابن مناذر قال: حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة وحج معهُ الفضل ابن الربيع وكان مضيفًا مملقًا، فهيأت فيهِ قولاً أجدت تنميقهُ وحسنت فيهِ، فدخلت إليهِ فى يوم التروية وإذا هو يسأل عنى ويطلبنى، فبادرنى الفضل بن الربيع قبل أن أتكلم فقال: يا أمير المؤمنين هذا شاعر البرامكة ومادحهم، وقد كان البشر ظهر لى فى وجههِ لما دخلت، فتنكر وعبس فى وجهى، فقال الفَضل: مره يا أمير المؤمنين أن ينشدك قولهُ فيهم «أتانا بنو الأملاك من آل برمك».

فقال لى أنشد، فأبيت، فتوعدنى وأكرهنى، فأنشدتهُ:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك ... فيا طيب أخبار ويا حسن منظرِ
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتجلوا لنا الدجى ... بمكة ما حجوا ثلاثة أقمرِ
فما خلفت إلا لجود أكفهم ... وإقدامهم إلا لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعابهُ ... وناهيك من راع لهُ ومدبر
ترى الناس إجلالاً لهُ وكأنهم ... غرانيق ماء تحت باز مصرصر

ثم أتبعت ذلك بأن قلت: كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم وفى طاعتك لم يلحقهم سخطك ولم تحلل بهم نقمتك ولم أكن فى ذلك مبتدعًا ولا خلا أحد من نظرائى من مدحهم، وكانوا قومًا قد أظلنى فضلهم وأغنانى رفدهم فاثنيت بما أولوا، فقال يا غلام ألطم وجههُ، فلطمت والله حتى سدرت وأظلم ما كان بينى وبين أهل المجلس، ثم قال اسحبوه على وجههِ.

ثم قال: والله لأحرمنك ولا تركت أحدًا يعطيك شيئًا فى هذا العام فسحبت حتى خرجت وانصرفت وأنا أسوأ الناس حالاً فى نفسى ومالى وما جرى علىّ ولا والله ما عندى ما يقيم يومئذ قوت عيالى لعبدهم، فإذا شاب قد وقف علىَّ ثم قال: اعذر علىّ والله يا كبيرنا بما جرى عليك، ودفع إلى صرة وقال: تبلغ بما فى هذه، فظننتها دراهم فإذا هى ثلاثمائة دينار، فقلت

له: من أنتِ جعلنى الله فداك، قال أنا أخوك أبو نواس فاستعن بهذه الدنانير واعذرنى، فقبلتها وقلت: وصلك الله يا أخى وأحسن جزاءك.

* * *

كرم يحيى بن خالد البرمكى

استدعى هارون الرشيد رجلاً من أعوانه يقال له صالح قبل الوقت الذى تغير فيه على البرامكة، فلما حضر بين يديه قال له: يا صالح سر إلى منصور وقل لهُ: إن لنا عندك ألف ألف درهم والرأى قد اقتضى أنك تحمل لنا هذا المبلغ فى هذه الساعة، وقد أمرتك يا صالح أنه إن لم يحصل لك ذلك المبلغ من هذه الساعة إلى قبل المغرب أن تزيل رأسهُ عن جسمه وتأتينى به، فقال سمعًا وطاعة وسار إلى منصور وأخبره ما ذكر أمير المؤمنين، فقال منصور قد هلكت فوالله إن جميع متعلقاتى وما تملكهُ يدى إذا بيعت بأغلى قيمة لا يزيد ثمنها على مائة ألف فمن أين أقدر يا صالح على التسعمائة ألف درهم الباقية، فقال لهُ صالح: دبر لك حيلة تتخلص بها عاجلاً وإلاَّ هلكت، فإنى لا أقدر أتمهل عليك لحظة بعد المدة التى عينها لى الخليفة ولا أقدر أن أخل بشىءٍ مما أمرنى به أمير المؤمنين، فأسرع بحيلة تتخلص بها قبل أن تنصرم الأوقات، فقال منصور: أسألك من فضلك أن تحملنى إلى بيتى لأودع أولادى وأهلى وأوصى أقاربى، قال صالح فمضيت إلى بيته فجعل يودع أهلهُ وارتفع الضجيج فى منزله وعلا البكاءُ والصياح والاستغاثة بالله تعالى، فقال صالح: قد خطر ببالى أن الله يجعل لك الفرج على يد البرامكة فاذهب بنا إلى دار يحيى بن خالد.

فلما ذهب إلى يحيى بن خالد أخبره بحاله، فاغتم لذلك وأطرق إلى الأرض ساعة، ثم رفع رأسهُ واستدعى خازن داره وقال لهُ: كم فى خزينتنا من المال، فقال لهُ مقدار خمسة آلاف درهم، فأمر بإحضارها، ثم أرسل رسولاً إلى ولده الفضل برسالة مضمونها: إنه قد عرض على للبيع ضياع جليلة لا تخرب أبدًا فأرسل لنا شيئًا من الدراهم، فأرسل إليه ألف ألف

درهم، ثم أرسل إنسانًا آخر إلى ولده جعفر برسالة مضمونها: إنهُ قد حصل لنا شغل مهم ونحتاج فيهِ إلى شيءٍ من الدراهم فأنفذ لهُ جعفر فى الحال ألف ألف درهم، ولم يزل يحيى يرسل أناسًا إلى البرامكة حتى جمع منهم لمنصور مالاً كثيرًا، وصالح ومنصور لا يعلمان بهذا الأمر فقال منصور ليحيى: يا مولاى قد تمسكت بذيلك وما أعرف هذا المال إلا منك كما هو عادة كرمك فتمم لى بقية دينى واجعلنى عتيقك، فأطرق يحيى وبكى وقال: يا غلام، إن أمير المؤمنين قد كان وهب لجاريتنا دنانير جوهرة عظيمة القيمة، فاذهب إليها وقل لها ترسل لنا هذه الجوهرة، فمضى الغلام وأتى بها إليه، فقال: يا صالح أنا ابتعت هذه الجوهرة لأمير المؤمنين من التجار بمائتى ألف دينار، ووهبها أمير المؤمنين لجاريتنا دنانير العوادة، وإذا رآها معك عرفها وأكرمك وحقن دمك من أجلنا إكرامًا لنا وقد تم الآن مالك يا منصور، (قال صالح) فحملت المال والجوهرة إلى المنصور معى، فبينما نحن فى الطريق إذ سمعته يتمثل بهذا البيت:

وما حبًا سعت قدمى إليهم ولكن خفت من ضرب النبال

فعجبت من سوء طبعهِ ورداءته وفساده، وخبث أصلهِ وميلاده، ورددت عليهِ وقلت له: ما على وجه الأرض خير من البرامكة ولا أخبث ولا أشر منك، فإنهم اشتروك من الموت وأنقذوك من الهلاك، ومنوا عليك بالفكاك ولم تشكرهم ولم تحمدهم ولم تفعل فعل الأحرار، بل قابلت إحسانهم بهذا المقال.

ثم مضيت إلى الرشيد وقصصت عليهِ القصة وأخبرتهُ بجميع ما جرى، فتعجب الرشيد من كرم يحيى وسخائه ومروءته، وخساسة منصور ورداءته، وأمر أن ترد الجوهرة إلى يحيى بن خالد وقال: كل شيء قد وهبناه لا يجوز أن نعود فيهِ، وعاد صالح إلى يحيى بن خالد وذكر لهُ قصة منصور وسوء فعلهِ، فقال يحيى: يا صالح إذا كان الإنسان مقلاً ضيق الصدر مشغول الفكر فمهما صدر منهُ لا يؤاخذ بهِ لأنهُ ليس ناشئًا عن قلبه، وصار يتطلب العذر لمنصور.. فبكى صالح وقال: لا يجرى الفلك الدائر بإبراز رجل إلى

الوجود مثلك، فوا أسفاهُ كيف يتوارى من لهُ خلق مثل خلقك وكرم مثل كرمك تحت التراب، وأنشد هذين البيتين:

بادر إلى أى معروف هممت به فليس فى كل وقت يمكن الكرمُ
كم مانع نفسهُ إمضاءَ مكرمة عند التمكن حتى عاقهُ الندمُ

* * *

جعفر البرمكى مع بائع الفول

حكى أن جعفرًا البرمكى لما صلبهُ هارون الرشيد أمر بصلب كل من نعاه أو رثاه فكف الناس عن ذلك فاتفق أن أعرابيًا كان ببادية بعيدة وفى كل سنة يأتى بقصيدة إلى جعفر البرمكى فيعطيه ألف دينار جائزة على تلك القصيدة فيأخذها وينصرف ويستمر ينفق منها على عياله إلى آخر العام، فجاء الأعرابى بالقصيدة على عادته، فلما جاء وجد جعفرًا مصلوبًا، فجاء إلى المحل الذى هو مصلوب فيه وأناخ راحلتهُ وبكى بكاءً شديدًا وحزن حزنًا عظيمًا وأنشد القصيدة ونام، فرأى جعفرًا البرمكى فى المنام يقول لهُ: إنك قد أتعبت نفسك وجئتنا فوجدتنا على ما رأيت ولكن توجه إلى البصرة واسأل عن رجل اسمهُ كذا وكذا من تجار البصرة وقل لهُ: إن جعفرًا البرمكى يقرئك السلام ويقول لك: أعطنى ألف دينار بإمارة الفولة، فلما انتبه الأعرابى من نومه توجه إلى البصرة فسأل عن ذلك التاجر واجتمع به، وبلغهُ ما قالهُ جعفر فى المنام، فبكى التاجر بكاءً شديدًا حتى كاد يفارق الدنيا، ثم إنهُ أكرم الأعرابى وأجلسهُ عنده وأحسن مثواه ومكث عنده ثلاثة أيام مكرمًا، ولما أراد الانصراف أعطاه ألفًا وخمسمائة دينار وقال لهُ: الألف هى المأمور لك بها والخمسمائة إكرام منى إليك ولك فى كل سنة ألف دينار، وعندما حان انصراف الأعرابى قال للتاجر: بالله عليك أن تخبرنى بخبر الفولة حتى أعرف أصلها، فقال لهُ: إنى كنت فى ابتداء الأمر فقير الحال أطوف بالفول الحار فى شوارع بغداد وأبيعه حيلة على المعاش، فخرجت فى يوم بارد ماطر وليس على بدنى ما يقينى من البرد تارة أرتعد من شدة البرد وتارة أقع فى ماء المطر

وأنا فى حالة كريهة تقشعر منها الجلود، وكان جعفر فى ذلك اليوم جالسًا فى قصر مشرف على الشارع وعنده خواصهُ، فوقع نظره على فرق لحالى وأرسل إلى بعض أتباعه فأخذنى إليه وأدخلنى عليه، فلما رآنى قال لى: بع ما معك من الفول على طائفتى، فأخذت أكيلهُ بمكيال كان معى فكل من أخذ كيلة فول يملأها ذهبًا حتى فرغ جميع ما معى ولم يبق فى القفة شىءٌ، ثم جمعت الذهب الذى حصل لى على بعضه، فقال لى هل بقى معك شىءٌ من الفول، قلت لا أدرى، ثم فتشت القفة فلم أجد فيها سوى فولة واحدة فأخذها منى جعفر وفلقها نصفين، فأخذ نصفها وأعطى النصف الثانى إحدى نسائه وقال: بكم تشترين نصف هذه الفولة، قالت بقدر هذا الذهب مرتين، فصرت متحيرًا فى أمرى وقلت فى نفسى هذا محال، فبينما أنا متعجب وإذ بالمرأة أمرت بعض جواريها فأحضرت ذهبًا قدر الذهب المجتمع مرتين، فقال جعفر وأنا أشترى النصف الذى أخذته بقدر الجميع مرتين ثم قال لى جعفر: خذ ثمن فولك، وأمر بعض خدَّامه فجمع المال كلهُ ووضعهُ فى قفتين فأخذتهُ وانصرفت، ثم جئت إلى البصرة واتجرت بما معى من المال فوسع الله علىَّ ولله الحمد والمنة، فإذا أعطيتك فى كل سنة ألف دينار من بعض إحسان جعفر ما ضرَّنى شىءٌ، فانظر مكارم أخلاق جعفر والثناء عليه حيًا وميتًا.

* * *

حكم الوادى ويحيى بن خالد والجارية دنانير

قال حكم الوادى: دخلت يومًا على يحيى بن خالد فقال لى: يا أبا يحيى ما رأيك فى خمسمائة دينار قد حضرت، قلت: ومن لى بها، قال: تلقى لحنك فى «ذكرتك إن فاض الفراق بأرضنا» على دنانير، فها هى ذه، وهذا سلام واقف معك ومخرجها إليك، وأنا راكب إلى أمير المؤمنين ولست أنصرف من مجلس المظالم إلى وقت الظهر فكدها فيه، فإذا أحكمتهُ فلك خمسمائة، فقالت دنانير: يا سيدى أبو يحيى يأخذ خمسمائة دينار وينصرف

وأنا أبقى معك أقاسمك عمرى كله، فقال لها: إن حفظتيه فلك ألف دينار، وقام فمضى، فقلت لها يا سيدتى اشغلى نفسك بذا، فإنك أنت تهبين لى الخمسمائة دينار بحفظك إياه وتفوزين بالألف الدينار، وإلا بطل هذا، فلم أزل معها أكدُّها وأغنى ونغنى حتى انصرف يحيى، فدعا بماء وطشت، ثم قال يا أبا يحيى غنّ الصوت كما كنت تغنيه، فقلت هلكت، يسمعهُ منى وليس هو ممن يخفى عليه ثم يسمعهُ منها فلا يرضاه، فلم أجد بدًا من الغناء، ثم قال: غنه أنت الآن فغنيت، فقال والله ما أرى إلاَّ خيرًا، فقلت جعلت فداك أنا أمضغ هذا منذ أكثر من خمسين سنة كما أمضغ الخبز وهذه أخذتهُ الساعة وهو بذل لها بعدى وتجترئُ عليه وتزداد حسنًا فى صوتها، فقال صدقت، هات يا سلام لهُ خمسمائة دينار ولها ألف دينار، ففعل، فقلت لهُ وحياتك يا سيدى لأشاطرنَّ أستاذى الألف دينار، قال ذلك إليك، ففعلت فانصرفت وقد أخذت بهذا الصوت ألف دينار.

* * *

إسحاق التميمى الشاعر والفضل بن يحيى

هو عبد الله بن يعقوب ويكنى أبو محمد مولى بنى تميم، حدث إسحاق قال: كنت على باب الفضل بن يحيى فأتانى التميمى الشاعر بقصيدة فى قرطاس وسألنى أن أوصلها إلى الفضل فنظرت فيها ثم خرقت القرطاس، فغضب أبو محمد وقال لى، أما كفاك أن استخففت بحاجتى ومنعتنى أن أدفعها إلى غيرك، فقلت لهُ أنا خيرٌ لك من القرطاس، ثم دخلت إلى الفضل فلما تحدثنا قلت لهُ: معى هدية وصاحبها بالباب وأنشدتهُ، فقال وكيف حفظتها، قلت الساعة دفعها إلى على الباب فحفظتها، فقال دع الآن، فقلت له: فأدخلهُ، فأُدخل، فسأله عن القصة: فأخبرهُ ثم خرج التميمى، فقلت خذ فى حاجة الرحل، فقال أما إذا عنيت به فقد أمرت لهُ بخمسة آلاف درهم، فقلت لهُ: أما إذا أقللتها فعجلها، فأمر بها فأحضرت، فقلت لهُ: أليس لإعناتك [illegible]، قال نعم، قلت فهاته، قال لا أبلغ بك فى

obeikandl.com

الإعنات ما بلغت بالشاعر فى المديح، فقلت فهات ما شئت، فأمر بثلاثة آلاف درهم فضممتها إلى الخمسة آلاف ووجهت بها إليه.

* * *

إبراهيم الموصلى يستوهب بالغناء ثمن ضيعة من البرامكة

حدث مخارق قال: اشتغل الرشيد يومًا واصطبح واصطبحت السماء تطش طشًا خفيفًا، فقلت والله لأذهبن إلى أستاذى إبراهيم فأعرف خبره ثم أعود، فأمرت من عندى أن يسووا مجلسًا لنا إلى وقت رجوعى، فجئت إلى إبراهيم الموصلى فإذا بالباب مفتوح والدهليز قد كنس والبواب قاعد فقلت: ما خبر أستاذى، فقال: ادخل فدخلت فإذا هو جالس فى رواق لهُ وبين يديهِ قدورٌ تغرغر وأباريق تزهر والستارة منصوبة والجوارى خلفها وإذا قدامهُ طست فيهِ رطليه وكوز وكأس، فدخلت أترنم ببعض الأصوات وقلت لهُ: ما بال الستارة لست أسمع من ورائها صوتًا، فقال اقعد ويحك إنى أصبحت على الذى ظننت فأتانى خبر ضيعة تجاورنى كنت والله طلبتها زمانًا وتمنيتها فلم أملكها وقد أعطى بها مائة ألف دينار، فقلت: وما يمنعك منها؟ والله لقد أعطاك الله أضعاف هذا المال وأكثر، قال صدقت ولكن لست أطيب نفسًا أن أخرج هذا المال، فقلت ومن يعطيك الساعة مائة ألف درهم والله ما أطمع فى ذلك من الرشيد فكيف من دونه، فقال اجلس خذ هذا الصوت، ونقر بقضيب معهُ على الدواة وألقى علىَّ هذين البيتين:

نام الخليون من هم ومن سقم ... وبت من كثرة الأحزان لم أنم

يا طالب الجود والمعروف مجتهداً ... اعمد ليحيى حليف الجود والكرمِ

فأخذته فأحكمتهُ، ثم قال لى: امض الساعة إلى باب الوزير يحيى بن خالد فإنك تجد الناس عليه وتجد الباب قد فتح ولم يجلس عليهِ بعد، فاستأذن عليهِ قبل أن يصل إليه أحد فإنهُ سينكر عليك مجيئُك ويقول: من أين أقبلت فى هذا الوقت، فحدثهُ بقصدك إياى وما ألقيت إليك من خبر الضيعة وأعلمهُ أنى صنعت هذا الصوت وأعجبنى ولم أر أحدًا يستحقهُ إلا فلانة

جاريتهُ وإنى ألقيتهُ عليكَ حتى أحكمتهُ لتطرحهُ عليها فيستدعى بها ويأمر بالستارة أن تنصب ويوضع لهُ كرسى ويقول لك: ألقه عليها بحضرتى فأفعل وأتنى بالخبر بعد ذلك، (قال) فجئت باب يحيى فوجدتهُ كما وصف وسألنى فأعلمتهُ ما أمرنى به ففعل كل شىء قالهُ لى إبراهيم وأحضر الجارية فالتقيت عليها، ثم قال لى: تقيم عندنا يا أبا المهنا أم تنصرف، فقلت: أنصرف أطال الله بقاءك فقد علمت ما أذن لنا فيهِ، فقال يا غلام احمل مع أبى المهنا عشرة آلاف درهم واحمل إلى أبى إسحاق مائة ألف درهم ثمن هذه الضيعة، فحملت العشرة آلاف درهم إلى وأتيت منزلى، فقلت أسر يومى هذا وأسر من عندى، ومضى الرسول إليهِ بالمال، فدخلت منزلى ونثرت على من عندى من الجوارى دراهم من تلك البدرة وتوسلتها وأكلت وشربت وطربت وسررت يومى كلهُ فلما أصبحت قلت: والله لآتين أستاذى ولأعرفن خبره فأتيتهُ فوجدت الباب كهيئته بالأمس ودخلت فوجدتهُ على مثل ما كان عليهِ فترنمت وطبت فلم يتلق ذلك بما يجب، فقلت لهُ ما الخبر ألم يأتك المال، قال بلى فما كان خبرك أنت بالأمس، فأخبرتهُ بما كان وهب لى وقلت: ما كان ينتظر من تحت الستارة، فقال ارفع السجف فرفعتهُ فإذا عشرة بدر، فقلت وأى شىء بقى عليك فى أمر الضيعة، قال ويحك ما هو والله إلا أن دخلت منزلى حتى شححت عليها فصارت مثل ما حويت قديمًا، فقلت سبحان الله العظيم فتصنع ماذا، قال قم حتى ألقى عليك صوتًا صنعتهُ يفوق ذلك الصوت فقمت وجلست بين يديهِ فألقى علىَّ:

ويفرح بالمولود من آل برمك ... بغاة الندى والسيف والرمح والنصلِ
وتنبسط الآمال فيهِ لفضلهِ ... ولا سيما إن كان من ولد الفضلِ

فلما ألقى علىّ الصوت سمعت ما لم أسمع مثلهُ قط وصغر عندى الأول فأحكمتهُ، ثم قال: انهض الساعة إلى الفضل بن يحيى فإنك تجده لم يأذن لأحد بعد وهو يريد الخلوة مع أهله اليوم فاستأذن عليهِ وحدثه بحديثنا أمس وما كان من أبيه إلينا وإليك، وأعلمهُ أنى قد صنعت هذا الصوت وكان عندى أرفع منزلة من الصَّوت الذى صنعتهُ بالأمس وإنى ألقيتهُ عليك حتى أحكمتهُ

ووجهت بك قاصدًا لتلقيه على فلانة جاريته، فصرت إلى باب الفضل فوجدت الأمر على ما ذكر، فاستأذنت فوصلت وسألنى ما الخبر فأعلمتهُ بخبرى فى اليوم الماضى وما وصل إلىَّ وإليه من المال فقال: أخزى الله إبراهيم فما أبخلهُ على نفسه ثم دعا خادمًا فقال: اضرب الستارة، فضربها فقال لى: ألقه فلما غنيتهُ لم أتمهُ حتى أقبل يجر بطرفه ثم جلس على وسادة دون الستارة وقال: والله لقد أحسنت وأستاذك يا مخارق فلم أخرج حتى أخذتهُ الجارية وأحكمت فسرَّ بذلك سرورًا شديدًا وقال أقم عندى اليوم، فقلت يا سيدى إنما بقى لنا يوم واحد ولولا أنى أحب سرورك لم أخرج من منزلى، فقال يا غلام احمل مع أبى المهنا عشرين ألف درهم واحمل إلى إبراهيم مائتى ألف درهم، فانصرفت إلى منزلى بالمال ففتحت بدرة نثرت منها على الجوارى وشربت وسررت أنا ومن عندى يومنا، فلما أصبحت بكرت إلى إبراهيم أتعرَّف خبره وأعرفهُ خبرى فوجدتهُ على الحال التى كان عليها أولاً وآخرًا، فدخلت أترنم وأصفق فقال لى ادنُ، فقلت: ما بقى، فقال اجلس وارفع سجف هذا الباب، فإذا عشرون بدرة مع العشرة الأول فقلت: ما تنتظر الآن، فقال ويحك ما هو والله إلا أن حصلت حتى جرت مجرى ما تقدم، فقلت ما أظن أحدًا نال فى هذه الدولة ما نلتهُ فلم تبخل على نفسك بشىء عنيتهُ دهرًا وقد ملكك الله أضعافهُ، ثم قال: اجلس فخذ هذا الصوت، وألقى على صوتًا إنسانيًا ـ والله ـ صَوْتَىِ الأوَّلَيْن:

إلى جعفر صارت بنا كل حرة ... طواها سراها نحـوه والتهجرُ
إلى واسـع للمنتـدين فناؤهُ ... تروح عطـاياه عليهم وتبكرُ

ثم قال لى: هل سمعت مثل هذا، فقلت ما سمعت قط مثله، فلم يزل يرد علىّ حتى أخذتهُ، ثم قال لى، امض إلى جعفر فافعل به كما فعلت بأخيه وأبيه (قال) فمضيت ففعلت مثل ذلك وخبرتهُ ما كان منهما وعرفته عليه الصوت فسرّ به ودعا خادمًا فأمره بضرب الستارة وأحضر الجارية وقعد على كرسى، ثم قال هات مخارق فاندفعت فألقيت الصوت عليها حتى أخذتهُ، فقال أحسنت والله يا مخارق وأحسن أستاذك فهل لك فى المنام

عندنا اليوم فقلت يا سيدى هذا آخر أيامنا وإنما جئت لموقع الصوت منى حتى ألقيته على الجارية، فقال: يا غلام احمل معهُ ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلى ثلاثمائة ألف درهم، فصرت إلى منزلى بالحال فأقمت ومن معى مسرورين نشرب بقية يومنا ونطرب، ثم بكرت إلى إبراهيم فتلقانى قائمًا وقال لى: أحسنت يا مخارق، فقلت: ما الخبر، فقال اجلس فجلست، فقال لمن خلف الستارة خذوا فيما أنتم فيه ثم رفع السجف فإذا المال فقلت: ما خبر الضيعة، فأدخل يده تحت مسورة هو متكئ عليها فقال: هذا صك الضيعة ثم سئل عن صاحبها فوجد ببغداد، فاشتراها منهُ يحيى بن خالد وكتب إلىَّ: قد علمت أنك لا تسخو نفسًا بشراء الضيعة من مال يحصل لك ولو حيزت لك الدنيا كلها، وقد ابتعتها لك من مالى ووجهت لك بصكها ووجه إلىّ بصكها ـ وهذا المال كما ترى، ثم بكى وقال لى: يا مخارق إذا عاشرت فعاشر مثل هؤلاء وإذا مدحت فامدح مثلهم، هذه ستمائة ألف وضيعة بمائة ألف وستون ألف درهم لك حصلنا ذلك أجمع وأنا جالس فى مجلسى لم أبرح منهُ فمتى يدرك مثل هؤلاء.

* * *

قيل فى محمد بن يحيى بن خالد البرمكى

سألت الندى والجود ما لى أراكما ... تبدلتما عزًا بذلٍّ مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدمًا ... فقال أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلاَّ متما بعد موته ... وقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقالا أقمنا كى نعزى بفقده ... مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

* * *

يحيى بن خالد وأحد الشعراء

دخل أحد الشعراء على يحيى بن خالد البرمكى فأنشده:

سألت الندى هل أنت حرٌّ فقال لا ... ولكننى عبد ليحيى بن خالدِ

فقلت شراءً قال لا بل وراثةً توارثنى من والد بعد والد

فأمر لهُ بعشرة آلاف درهم.

* * *

الفضل بن يحيى والأعرابى

روى الأصمعى عن الفضل بن يحيى قال خرج يومًا للصيد والقنص، وبينما هو فى موكبه إذ رأى أعرابيًا على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض فى سيره قال: هذا يقصدنى فلا يكلمه أحد غيرى، فلما دنا الأعرابى ورأى المضارب تضرب، والخيام تنصب والعسكر الكثير، الجمُّ الغفير، وسمع الغوى والضجة ظنَّ أنهُ أمير المؤمنين، فنزل وعقل راحلتهُ وتقدم إليه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتهُ، قال: اخفض عليك ما تقول: فقال: السلام عليك أيها الأمير، قال: الآن قاربت اجلس فجلس الأعرابى، فقال لهُ الفضل من أين أقبلت يا أخا العرب، قال من قضاعة، قال من أدناها أو من أقصاها، قال من أقصاها، فقال يا أخا العرب: مثلك من يقصد من ثلاثمائة فرسخ إلى العراق لأى شيء، قال قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم فى البلاد، قال من هم، قال البرامكة، قال الفضل: يا أخا العرب، إن البرامكة خلق كثير، وفيهم جليل وخطير، ولكلٍّ منهم خاصة وعامة، فهل أفرزت منهم لنفسك من اخترتهُ لنفسك وأتيتهُ لحاجتك، قال: أجل أطولهم باعًا وأسمحهم كفًا، قال من هو، قال: الفضل بن يحيى بن خالد، فقال لهُ الفضل يا أخا العرب، إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر، إذا جلس للناس مجلسًا عامًا لم يحضر مجلسهُ إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتَّاب والمناظرون للعلم، أعالمٌ أنت، قال لا، قال: أوردت على الفضل بكتاب رسيلة، [illegible] فقال يا أخا العرب غرتك نفسك، مثلك يقصد الفضل بن يحيى [illegible] ما عرفتك عنهُ من الجلالة، بأى ذريعة أو وسيلة تقدم عليهِ، قال [illegible] الله [illegible] قصدتهُ إلاَّ لإحسانهِ المعروف، وكرمهِ الموصوف، وبيتين من الشعر قلتهما

obeikandi.com

فيهِ، فقال الفضل: يا أخا العرب أنشدنى البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلقائه، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشيءٍ من مالى ورجعت إلى باديتك وإن كنت لا تستحق بشعرك شيئًا، قال: أفتفعل أيها الأمير، قال: نعم، قال: فإنى أقول:

ألم ترَ أن الجـــودَ من عهـد آدمٍ   تحدَّرَ حتى صـــار يمتصهُ الفضل
ولو أنَّ أمًا مسها جوع طفلها   غذتهُ باسم الفضلِ لاغتذا الطفل

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعرٌ وأخذ الجائزة عليهما فأنشدنى غيرهما، فما تقول؟ قال: أقول:

قد كان آدمُ حين حان وفاتهُ   أوصاك وهو يجودُ بالحبـــاء
ببنيهِ أن ترعاهم فرعيتهم   وكفيت آدم عـولة الأبناء

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك ممتحنًا، هذا البيتان أخذتهما من أفواه الناس، فأنشدنى غيرهما، فما تقول وقد رمقتك الأدباء بالأبصار وامتدت الأعناق إليك وتحتاج أن تناضل عن نفسك، قال: إذن أقول:

ملَّت جهـابذ فضلٍ وزن نائلهِ   وملَّ كاتبهُ إحصـــاءَ مـا يهبُ
والله لولاك لم يمدح بمكرمـةٍ   خلقٌ ولم يرتفع مجدٌ ولا حسبُ

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل هذان البيتان مسروقان أنشدنى غيرهما، فما تقول، قال إذن أقول:

ولو قيل للمعـروفِ نادِ أخا العلا
لنادى بأعلى الصوت يا فضلُ يا فضلُ
ولو أنفقتْ جـــدواك من رمل عـــالج
لأصبح مـن جـدواك قـد نفـد الرملُ

قال: أحسنت يا أخا العرب فإن قال لك الفضل: هذا البيتان مسروقان أيضًا: أنشدنى غيرهما فما تقول، قال أقول:

ومـا الناس إلاَّ اثنان صـبٌّ وباذلٌ   وإنى لذاك الصبُّ والباذلُ الفضلُ
على أنَّ لى مثلاً كمـا ذكر الورى   وليس لفضـلٍ فى سمـاحتـهِ مثلُ

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: أنشدنى غيرهما فما

obeikandi.com

تقول؟ قال: أقول أيها الامير:

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد
فقامت بهِ التقوى وقام بهِ العدلُ
وقام بهِ المعروف شرقًا ومغربًا
ولم يكُ للمعروف بعدٌ ولا قبلُ

قال: أحسنت، فإن قال: قد ضجرنا من الفاضل والمفضول أنشدنى بيتين على الكنية لا على الاسم فما تقول، قال: إذن أقول:

ألا يا أبا العباس يا واحد الورى ويا ملكًا خدُّ الملوك لهُ نعلُ
إليك تسير الناس شرقًا ومغربًا فرَادَى وأزواجًا كأنهم نحلُ

قال: أحسنت يا أخا العرب فإن قال لك الفضل: أنشدنا غير الاسم والكنية والقافية قال: والله لئن زادنى الفضل وامتحننى بعد هذا لأقولن أربعة أبيات ما سبقنى إليهن أعرابى ولا أعجمى ولئن زادنى بعدها لأجمعنَّ قوائم ناقتى هذه وأجعلها فى فم الفضل، ولأرجعنَّ إلى قضاعة خاسرًا ولا أبالى، فنكس الفضل رأسهُ وقال للأعرابى: يا أخا العرب أسمعنى الأبيات الأربعة، قال: أقول:

ولائمةٍ لامتك يا فضل فى الندى
فقلت لها هل يقدح اللوم فى البحرِ
انتهين فضلاً عن عطاياهُ للغنى
فمن ذا الذى ينهى السحاب عن القطرِ
كأن نوال الفضلِ فى كل بلدةٍ
تحدُّر هذا المزن فى مهمهٍ قفرِ
كأن وفود الناس فى كل وجهةٍ
إلى الفضل لاقوا عندهُ ليلة القدرِ

قال: فأمسك الفضل عن فيهِ وسقط على وجهه ضاحكًا، ثم زفع رأسهُ وقال: يا أخا العرب أنا والله الفضل بن يحيى سلْ ما شئت، فقال: ألتك بالله أيها الأمير إنك لهوَ، قال نعم، قال لهُ: فأعطنى الأمان، قال: عليك

الأمان اذكر حاجتك، قال عشرة آلاف درهم، قال الفضل: ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب، تعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة آلاف وأمر بدفع المال، فلما صار المال إليه حمدهُ وزير الفضل وقال: يا مولاى هذا إسراف، يأتيك جلف من أجلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب فتجزيه بهذا المال، فقال: استحقهُ بحضوره إلينا من أرض قضاعة، قال الوزير: أقسمت عليك إلاَّ أخذت سهمًا من كنانتك وركبتهُ فى كبد قوسك وأومأت به إلى الأعرابى، فإن ردَّ عن نفسه ببيت من الشعر، وإلاَّ فاستعطف مالك ويكون لهُ فى بعضه كفاية، فأخذ الفضل سهمًا وركبهُ فى كبد قوسه وأومأ به إلى الأعرابى وقال لهُ: ردَّ سهمى ببيت من الشعر فأنشأ يقول:

لقوسك قوس الجود والوتر الندى وسهمك سهم العز فارم به فقرى

فضحك الفضل وأنشأ يقول:

إذا ملكت كفى منالاً ولم أنل
فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله إخلاف الذى قد بذلتهُ
فلا مبق لى بخلى ولا متلفى بذلى
أرونى بخيلاً نال مجداً ببخله
وهاتوا كريمًا مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل لوزيره: أعط الأعرابى مائة ألف درهم لقصده وشعره ومائة ألف درهم ليكفينا شرَّ قوائم ناقته، فأخذ الأعرابى المال وانصرف وهو يبكى، فقال لهُ الفضل: صمّ بكاءك يا أعرابى، أاستقلالاً للمال الذى أعطيناك، قال لا ولكنى أبكى على مثلك يأكلهُ التراب وتواريه الأرض، وتذكرت قول الشاعر:

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا فرس تموت ولا بعيرُ
ولكن الرزية فقد حرٍّ يموت لموته خلقٌ كثير

ثم انصرف الأعرابى مسرورًا.

* * *

مروان بن أبى حفصة وجعفر البرمكى

دخل مروان بن أبى حفصة على جعفر بن يحيى فأنشده:

أبرَّ فما ترجو الجيادُ لحافه أبو الفضل سباق الأخاصيم جعفر
وزير إذا ناب الخلافة حادث أشار بما عنهُ الخلافة تصدر

فقال جعفر: أنشدنى مرثيتك فى معن بن زائدة، فأنشده:

أقمنا باليمامة أو نسينا مقامًا لا نريد به زوالاً
وقلنا أين نذهب بعد معنٍ وقد ذهب النوال فلا نوالا
وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرتهُ عيالا

حتى فرغ من القصيدة وجعفر يرسل دموعه على خديه فقال: هل أثابك على هذه المرثية أحد من أهل بيته وولده، قال لا، قال فلو كان معن حيًا ثم سمعها منك كم كان يثيبك عليها، قال أربعمائة دينار، قال ما كنا نظن أنهُ يرضى لك بذلك وقد أمرنا لك عن معنٍ رحمهُ الله بالضعف مما ظننته وزدناك مثل ذلك، فاقبض من الخازن ألفًا وستمائة دينار قبل أن تخرج، فقال مروان يذكر جعفراً وما سمح به عن معن:

نفحت مكافئًا عن جود معن لنا فيما تجود به سجالا
فعجلت العطية بابن يحيى لنادبه ولم ترد المطالا
فكافأ عن صدى معن جواد بأجود راحة بذلت نوالا
بنى لك خالد وأبوك يحيى بناءً فى المكارم لن ينالا
كأنَّ البرمكىّ لكلِّ مالٍ تجود به يداه يفاد مالا

* * *

إسحاق الموصلى عند الكرماء

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى: دعانى يحيى بن خالد فدخلت عليه وكان عنده الفضل وجعفر وولداه فقال لى: أصبحت اليوم مهمومًا فأردت الصبوح لأتسلى فغنِّ صوتًا لعلى أرتاح إليه فغنيتهُ:

إذا نزلوا بطحاء مكةَ أشرفت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فما خلقت إلاَّ لجود أكفهم وأرجلهم إلاَّ لأعواد منبرِ

فسرَّ وأمر لى بمائة ألف درهم، وأمر لى كل واحد من ولديه بمثل هذا المبلغ، فحملت المال وانصرفت.

* * *

كرم يحيى بن خالد

من مكارمه أن الرشيد لما نكب البرامكة واستأصل شأفتهم حرَّم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمؤاخذة على ذلك، فاجتاز بعض الحرس ببعض الخربات فرأى إنسانًا واقفًا وفى يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة وهو ينشده ويبكى فأخذه الحرس وأتى به إلى الرشيد وقص عليه الصورة، فاستحضره الرشيد وسأله عن ذلك فاعترف به، فقال لهُ الرشيد: أما سمعت تحريمى إرثائهم لأفعلن بك وأصنعن، فقال يا أمير المؤمنين إذا أذنت لى فى حكاية حالى حكيتها ثم بعد ذلك أنت ورأيك قال: قل، قال: إنى كنت من أصغر كتاب يحيى بن خالد وأرقهم حالاً، فقال لى أريد أن تضيفنى فى دارك يومًا فقلت: يا مولانا أنا دون ذلك وداري لا تصلح لهذا قال: لا بد من ذلك، قلت: فإن كان لا بد فأمهلنى مدة حتى أصلح شأنى ومنزلى، ثم بعد ذلك أنت ورأيك، قال: كم أمهلك؟ قلت: سنة، قال: كثير، قلت: فشهورًا، قال نعم، فمضيت وشرعت فى إصلاح المنزل وتهيئة أسباب الدعوة، فلما تهيأت الأسباب أعلمت الوزير بذلك: فقال نحن غدًا عندك، فمضيت وتهيأت فى الطعام والشراب وما يحتاج إليه، فحضر الوزير فى غدٍ ومعهُ ابناه جعفر والفضل وعدة يسيرة من خواص أتباعه، فنزل عن دابته ونزل ولداه جعفر والفضل ومن معهُ وقال: يا فلان أنا جائع فعجل لى بشىء، فقال لى الفضل ابنهُ: الوزير يحب الفراريج المشوية فعجل منها ما حضر، فدخلت وأحضرت شيئًا، فأكل الوزير ثم قام يتمشى فى الدار وقال: يا فلان فرجنا فى دارك فقلت يا مولانا هذه هى دارى ليس لى غيرها قال بلى لك

غيرها، قلت والله لا أملك سواها، فقال هاتوا بناءً، فلما حضر قال لهُ افتح فى هذا الحائط بابًا، فمضى ليفتح فقلت: يا مولانا كيف يجوز أن يفتح بابٌ إلى بيوت الجيران والله أوصى بحفظ الجار، قال لا بأس فى ذلك ثم فتح الباب، فقام الوزير وأبناؤه فدخلوا فيهِ وأنا معهم فخرجوا منهُ إلى بستان حسن كثير الأشجار والماء يتدفق فيه وبهِ من المقاصير والمساكن ما يروق كل ناظر، وفيه من الآلات والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع، فقال هذا المنزل وجميع ما فيهِ لك، فقبلت يده ودعوت لهُ وتحققت الفضة فإذا هو من يوم حادثنى فى أمر الدعوة قد أرسل واشترى الأملاك المجاورة لى وعمرها دارًا حسنة ونقل إليها من كل شىء وأنا لا أعلم، وكنت أرى العمارة وأحسبها لبعض الجيران، فقال لابنهِ جعفر: يا بنى هذا منزل وعمال فالمادة من أين تكون لهُ، قال جعفر: قد أعطيتهُ الضيعة الفلانية بما فيها وسأكتب لهُ بذلك كتابًا، فالتفت إلى ابنه الفضل وقال لهُ يا بنى فمن الآن إلى أن يدخل دخل هذه الضيعة ما الذى ينفق، قال الفضل علىّ عشرة آلاف دينار أحملها إليهِ، فقال عجلا لهُ ما قلتما، فكتب لى جعفر بالضيعة وحمل الفضل إلىّ المال، فأثريت وارتفعت حالى وكسبت بعد ذلك معهُ مالاً طائلاً أنا أتقلب فيهِ إلى اليوم، فوالله يا أمير المؤمنين ما أجد فرصة أتمكن فيها من الثناء عليهم والدعاء لهم إلاَّ انتهزتها مكافأة لهم على إحسانهم ولن أقدر على مكافأته، فإن كنت قاتلى على ذلك فافعل ما بدا لك، فرقَّ الرشيد لذلك وأطلقهُ وأذن لجميع الناس فى رثائهم.

* * *

رثاءُ امرأة لجعفر

قال أبو زيد الرياحى: كنت جالسًا عند خشبة جعفر بن يحيى البرمكى أفكر فى زوال ملكهِ وحالهِ التى صار إليها إذ أقبلت امرأة لها هيئة حسنة فوقفت على جعفر وبكت واحترقت وتكلمت فأبلغت وقالت: أما والله لئن أصبحت للناس آية لقد بلغت الغاية، ولئن زال ملكك وخانكَ دهرك ولم

يطل بهِ عمرك فلقد كنتَ المغبوط الناعم بالاً، يحسن بك الملك فاستعظم الناس فقدك، إذ لم يستخلفوا ملكًا بعدك، فنسأل الله الصبر على عظيم الفجيعة وجليل الرزيئة الذى لا يستعاض بغيرك، والسلام عليك وداع غير قالٍ ولا ناسٍ لذكرك ثم أنشأت تقول:

العيش بعـدك مرٌّ غير محبـوب ومذ صلبت ومقنا كل مصلـوب
أرجو لك الله ذا الإحسان أن لهُ فضلاً علينا وعفوًا غير محسوب

ثم سكتت ساعة وتأملتهُ ثم أنشأت تقول:

عليـك مـن الأحبـة كل يوم سلام الله مـا ذكر السـلامُ
لئن أمسى صداك برأى عين على خشب حباك به الإمامُ
فمـن ملك إلى ملك برغـم من الأملاك آن لك الحمـامُ

* * *

المأمون وراثى البرامكة

قال خادم المأمون: طلبنى أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثهُ فقال لى: خذ معك فلانًا وفلانًا وسماهما لى أحدهما على بن محمد والآخر دينار الخادم واذهب مسرعًا لما أقول لك فقد بلغنى أن شيخًا يحضر ليلاً إلى آثار دور البرامكة وينشد شعرًا يذكرهم ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف، فامض أنت وعلى ودينار حتى تردوا تلك الخرابات فاستتروا وراء بعض جدرانها فإذا رأيتم الشيخ قد جاءَ وندب وأنشد أبياتًا فأتونى بهِ، فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات فإذا بغلام قد أتى ومعهُ بساط وكرسى جديد برفقته شيخ جميل الطلعة لطيفًا مهابًا فجلس على الكرسى وجعل يبكى وينتحب ويقول هذه الأبيات:

ولما رأيت السيف جنـدل جعفرًا ونادى منـاد للخليفـة فى يحيى
بكيت على الدنيـا وزاد تأسفى عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها، فلما فرغ قبضنا عليهِ: وقلنا لهُ أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعًا شديدًا وقال: دعونى حتى أوصى بوصية فإنى لا أوقن بعدها بحياة، ثم

تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه، ثم سرنا به فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين قال لهُ، من أنت وبما استوجبت منك البرامكة ما تفعلهُ فى خرائب دورهم، قال الشيخ: يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادى خطيرة عندى فأذن لى أن أحدثك بحالى معهم، قال: قل، فقال يا أمير المؤمنين: أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عنى نعمتى، فلما ركبنى الدين واحتجت إلى بيع مسقط رأسى أشار علىّ الأهل بالخروج إلى البرامكة.

فخرجت من دمشق مع ثلاثين رجلاً من أهلى وليس معنا ما يباع أو يوهب . دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد فاستترت بثياب أعددتها، وتركتهم جياعًا لا شىء عندهم ودخلت شوارع بغداد سائلاً عن البرامكة فإذا أنا بجامع مزخرف يغص بالجلوس وفى جانبهِ شيخ بأحسن زى وزينة وعلى الباب خادمان فطفت فى القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم رجلاً وأُؤَخر أخرى والعرق يسيل منى لأنها لم تكن صنعتى وإذا بالخادم مقبلاً يدعو القوم فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد فدخلت معهم وإذا بدكة لهُ وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدًا وبين يديهِ عشرة من أولاده، وإذا بمائة واثنى عشر خادمًا قد أقبلوا ومع كل خادم صينية، فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير فى أكمامهم ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدى لا أجسر على أخذ الصينية وتغمزنى الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب فى كمى والصينية فى يدى وقمت ولا أتلفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب فوصلت إلى صحن الدار ويحيى يلاحظنى فقال للخادم ائتنى بهذا الرجل: فأتى بى، فقال ما لى أراك تتلفت يمينًا وشمالاً فقصصت عليهِ قصتى، فقال للخادم ائتنى بولدى موسى، فأتاه بهِ، فقال لهُ يا بنى هذا رجل غريب خذه إليك واحفظهُ بنفسك ونعمتك، فقبض موسى ولده على يدى وأدخلنى إلى دار لهُ، فأكرمنى غاية الإكرام وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور فلما أصبح دعا بأخيهِ العباس وقال لهُ: الوزير أمرنى بالعطف على هذا

الفتى وقد علمت اشتغالىُ فى بيت أمير المؤمنين فاقبلهُ عندك وأكرمهُ، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام، ثم وفى الغد سلمنى لأخيه أحمد ولم أزل فى أيدى القوم يتداولوننى تباعًا مدة عشرة أيام لا أعرف شيئًا عن عيالى أمواتًا هم أم أحياءَ، فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا قم فاخرج إلى عيالك بسلام، فقلت ويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج على هذه الحالة، إنا لله وإنا إليهِ راجعون، فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادم الأخير قال لى: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلى فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى بهِ فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسنًا ونورًا، واستقبلنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج وحمل إلى عشرة آلاف دينار ومنشورًا بضيعتين وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب، فلما دهمتهم البلية ونزل بهم ما نزل من الرشيد ألزمنى عمرو بن مسعدة بدفع خراج على هاتين الضيعتين لا يفى دخلهما بهِ فلما تجامل على الدهر كنت فى آخر الليل أقصد خرابات دورهم فأندبهم وأذكر حسن صنعهم إلى وأبكى على إحسانهم، فدعا المأمون بعمرو بن مسعدة، فلما أتى بهِ قال له: أتعرف هذا الرجل، قال يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال كم ألزمتهُ فى ضيعتيهِ، قال كذا وكذا، فقال لهُ رد إليهِ كل ما أخذتهُ منهُ فى مدتهِ ليكون لهُ ولعقبهِ من بعده، وللحال علا نحيب الرجل.

فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال لهُ: يا هذا قد أحسنا إليك فما يبكيك، قال يا أمير المؤمنين وهذا أيضًا من صنيع البرامكة، لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم لما اتصل خبرى إلى أمير المؤمنين ففعل بى ما فعل، فما كاد ينتهى من كلامهِ حتى فاضت عبرات المأمون وظهر عليه الحزن وقال: لعمرى هذا من صنيعِ البرامكة فعلى مثلهم يبكى وإياهم يشكر ولهم يوفى ولاحسانهم يذكر.

مقتل البرامكة

قال إسماعيل بن يحيى الهاشمى: كنت مع الرشيد يومًا من الأيام راكبًا إلى الصيد فبينما نحن نسير إذ نظرنا إلى موكب بالبعد اعترضنا فقال لى: يا إسماعيل لمن هذا، فقلت لأخيك جعفر بن يحيى فالتفت يمينًا وشمالاً إلى من معهُ فى موكبهِ فإذا هى شرذمة يسيرة ثم نظر إلى الموكب الذى فيهِ جعفر فلم يره فقال: يا إسماعيل ما فعل جعفر وموكبهُ، فقلت يا سيدى قد مضى فى طريقهِ ولم يعلم بموضعك، فقال ما رآنا أهلاً أن يزيننا بموكبهِ ويجملنا بجيشهِ، فقلت العفو يا أمير المؤمنين لو علم بمكانك ما تعداك وما سار إلاَّ بين يديك واعتذرت بما حضر لى من الكلام، ثم سرنا حتى انتهينا إلى ضيعة عامرة ومواشٍ كثيرة وكان الطريق يدور عليها فدرنا حتى رأينا باب القرية، فنظر الرشيد إلى البيدر وإلى كثرة الغلال والمواشى ويسار أهلها فالتفت إلى وقال يا إسماعيل لمن هذه الضيعة، قلت لأخيك جعفر بن يحيى، فسكت ثم تنفس الصعداء ثم سرنا، ولم يزل يمر بكل ضيعة أعمر من الأخرى وكلما مر وسألنى عن ضيعة قلت لجعفر بن يحيى حتى سرنا ووصلنا إلى المدينة، فلما أردت وداعه والانصراف إلى منزله نظر إلى من كان حواليه نظرة فعلموا ما أراد فتفرقوا وبقيت أنا وهو فقال يا إسماعيل، قلت لبيك يا أمير المؤمنين، فقال انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وغفلنا أمرهم، فقلت فى نفسى بلية والله ثم قلت: لماذا يا أمير المؤمنين، قال نظرت لهؤلاء وغفلت هؤلاء لأنى لا أعرف لولد من أولادى ضيعة من مثل ضياعهم فإنك ترى ضياع البرامكة على طريق واحد قرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم غير ذلك على غير هذا الطريق فى سائر البلدان، فقلت يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضياع وأموالهم وكل ما يملكونهُ لك، فنظر إلىّ نظرة جبار عنيد ثم قال: ما عدّ البرامكة بنى هاشم إلاَّ عبيدهم وإنهم هم الدولة وأن لا نعمة لبنى العباس إلاَّ وهم أنعموا عليهم بها، فقلت أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمه ومواليهِ، فقال والله يا إسماعيل إنك لتعلم أنى قلتُ هذا وكأنى

أراك أن تعلمهم بكلامى فتتخذ لك عندهم يداً، وإنى أود أن تكتم هذا الأمر فإنه ما علم بهِ أحد غيرك ومتى بلغهم شيءٌ مما جرى علمت أنه ما أفشاه إلا أنت، فقلت يا أمير المؤمنين أعوذ بالله أن يكون مثلى يفشى سرك، (قالَ) وكان هذا القول أول ما ظهر من أمر البرامكة، ثم ودعتهُ وانصرفت متفكراً فى إيقاع الحيلة عنهم، فلما كان من الغد بكرت إليهِ وجلست بين يديهِ، وكان فى محل يشرف على دجلة من شرق مدينة باب السلام وبإزائهِ، فنزل جعفر من الجانب الغربى، وكانت المواكب من جميع الأصناف من قائد وأمير وعامل يردون فى كل يوم إلى قصر جعفر، فالتفت إلى وقال: يا إسماعيل هذا ما كنا فيهِ بالأمس انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب وأنا ما على باب دارى أحد، فقلت يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن لا تعلق نفسك بفكرك هذا وإن جعفراً إنما هو عبدك وخادمك ووزيرك وصاحب جيوشك إذا لم يكن الجيش على بابهِ فعلى باب من يكون وإنما بابه باب من أبوابك، فقال يا إسماعيل انظر إلى دوابهم ألست ترى أعجازهم إلى قصرى وتروث بإزائنا ونحن ننظر إليها والله هذا هو الاستخفاف بعينهِ والله لا أصبرن على ذلك، ثم غضب غضبًا شديداً وامتلأ غيظًا فأمسكت عن الكلام وقلت: والله هذا قضاءٌ من الله سابق وحكم لا محالة واقع، ثم استأذنتهُ فى الانصراف وعدت إلى منزلى، فلقينى جعفر فى الطريق يريد الرشيد فتواريت عنهُ حتى مضى، فدخل إليهِ وسلم عليهِ فأجلسهُ عن يمينهِ وأكرمهُ غاية الإكرام وبش فى وجههِ وحادثهُ ساعة ووهب لهُ خادمًا من خاصة خدمهِ وأنبلهم وأوضحهم وجهًا وأكملهم ظرفًا كاتبًا حاسبًا لبيبًا، فسرّ جعفر سروراً كاملاً ووقع فى قلبهِ أجلّ موقع، وكان دسيسًا عليهِ وبلية لديهِ يرفع أخباره إلى الرشيد ويحصى عليهِ أنفاسهُ ساعةً بساعة ووقتًا بوقت فخلا بهِ جعفر يومهُ دلك وليلتهُ واحتجب من أجله عن الناس، فلما كان بعد ثلاثة أيام سرت إلى جعفر فسلمت عليهِ، فلما خلا مجلسهُ ولم يبق عنده غيرى وذلك الخادم واقف فعلمت أن الخادم يحصى علينا أخبارنا فقلت: أيها الوزير نصيحة أفتأذن لى فى الكلام، وكان الرشيد ولاه كورة خراسان كلها

وما يضاف إليها وما ينسب لها قبل هذا الكلام بأيام وخلع عليهِ وعقد لهُ لواءً وعسكرًا بالنهروان وضرب الناس مضاربهم بها وهم متأهبون للسفر، فقلت يا سيدى أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده، فلما قلت هذا نظر إلىّ مغضبًا وقال: والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك أو قال صاحبك إلاَّ بفضلى ولا قامت هذه الدولة إلاَّ بنا أما كفى أنى تركتهُ لا يهتم بأمر شىء من نفسه وولده وحاشيته ورعيته وقد ملأت بيوت أمواله أموالاً ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمد عينهُ إلى ما ادخرتهُ وأخذتهُ لولدى وعقبى من بعدى وداخلهُ حسد بنى هاشم ودب فيهِ الطمع وقال والله لئن سألنى شيئًا من ذلك ليكونن وبالاً عليهِ سريعًا، فقلت والله يا سيدى ما كان مما ظننت شىءٌ ولا تكلم أمير المؤمنين بحرف قال فما هذا الفضول منك، فجلست بعدها هنيهة ثم قمت إلى منزلى ولم أركب إليهِ ولا إلى الرشيد لأنى صرت بينهما فى حالة شبهة وقلت فى نفسى هذا الخليفة وهذا وزيره وأى شىءٍ لى بالدخول بينهما، وعلمت عند ذلك أن الخادم الذى وهبهُ الرشيد لجعفر كتب إلى الرشيد بما كان بينى وبينهُ وما تكلم بهِ من الكلام الغليظ.

فلما قرأ الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلاثة أيام متفكرًا فى إيقاع الحيلة على البرامكة، فدخل فى اليوم الرابع على زبيدة فخلا بها وشكا لها ما فى قلبهِ وأطلعها على الكتاب الذى رفعهُ إليهِ الخادم، وكان بين جعفر وزبيدة شر وعداوة قديمة فلما تملكت الحجة عليهِ بالغت فى المكر بهم واجتهدت فى هلاكهم، وكان الرشيد يتبرك بمشورتها فقال: علىَّ برأيك الموفق الرشيد فإنى خائف أن يخرج الأمر من يدىَّ إن تمكنوا من خراسان وتغلبوا عليها، فقالت يا أمير المؤمنين مثلك مع البرامكة كمثل رجل سكران غريق فى بحر عميق فإن كنت قد أفقت من سكرتك وتخلصت من غرقتك أخبرتك بما هو أصعب عليك وأعظم من هذا بكثير وإن كنت على الحالة الأولى تركتك فقال قد كان ما كان والآن أسمع منك، فقالت إن هذا الأمر أخفاه عنك وزبرك وهو

أصعب مما أنت فيهِ وأقبحُ وأشنع، فقال لها ويحك ما هو، فقالت أنا أجل من أن أخاطبك بهِ ولكن تحضر أرجوان الخادم وتشدد عليهِ وتوهنهُ ضربًا فإنهُ يعرفك الخبر، وكان الرشيد قد أحل جعفرًا محلاً لم يحلهُ أخوه ولا أبوه وفوض له أن يرى كل جواريه سوى امرأته زبيدة فإنهُ لم يكن رآها، فلما فسد قلب الرشيد وعزم على هلاك البرامكة وجدت عليهم سبيلاً ومالت على جعفر، وكان جعفر يدخل إلى الحريم فى غياب الرشيد فلا يسترنَ منهُ وكان ذلك بأمر الرشيد.

وقيل: إنهُ كان للرشيد مجلس بالليل مع جعفر البرمكى فقال لهُ يومًا: لا يطيب لى ذلك إلا بمحضر أختى العباسة ولكن لا يجوز إلا أن نكتب لك عليها لإباحة النظر من غير أن تقربها، فاتفقا على ذلك وعقد لهُ عليها ثم أحضرها فكانت تحضر ذلك المجلس إلاّ أنهُ زاد غرامها وعشقها فيهِ، وكان لجعفر البرمكى امرأة تزين لهُ الجوارى كل ليلة فجاءتها العباسة ورشتها بالمال فزينتها له وأدخلتها عليه فظن أنها جارية.

فلما أصبحوا قالت لهُ: أنا العباسة وقد كنت أسألك أن تساعدنى على مودتك فتأبى فلما أيست منك احتلت عليك بما رأيت فى هذه الليلة وإن لم تواظب لأكونن سببًا فى سلب نعمتك وهل أنت إلاّ زوجى.

فطار السكر من رأس جعفر وقال لها: أهلكتنى وأهلكت نفسك فوالله لقد بعتينى رخيصًا.

فلما بلغ الرشيد الخبر خرج واستدعى بأرجوان الخادم وأحضر السيف والنطع وقال: برأت من المنصور إن لم تصدقنى حديث جعفر لأقتلنك، فقال الأمان يا أمير المؤمنين قال نعم لك الأمان، قال اعلم أن جعفرًا قد خانك فى أختك العباسة وقد دخل بها منذ سبع سنين وولدت منهُ ثلاثة بنين الأول لهُ ست سنين والاثنان قد أنفذهما إلى مدينة الرسول ﷺ وهى حامل بالرابع وأنت أذنت لهُ بالدخول على أهل بيتك وأمرتنى أن لا أمنعهُ فى أى وقت شاء ليلاً ونهارًا، قال أمرتك أن لا تحجبه فحين حدثت هذه الحادثة لمَ لم تخبرنى، ثم أمر بضرب عنقهِ وقام من وقتهِ ودخل على زبيدة وقال لها أرأيت

ما عاملنى بهِ جعفر وما ارتكب من هتك سترى ونكس رأسى وفضحنى بين العرب والعجم، فقالت هذه شهوتك وإرادتك عمدت إلى شباب جميل الوجه حسن الثياب طيب الرائحة جابر فى نفسه أدخلتهُ على ابنة خليفة من خلفاءِ الله وهى أحسن منهُ وجهًا وأنظف منهُ ثوبًا وأطيب منهُ رائحة لكنها لم تر رجلاً قط غيره، فهذا جزاءُ من جمع بين النار والحطب، فخرج من عندها مكروبًا فدعا بخادمه مسرور وكان قاسى القلب فظًا غليظًا قد نزع الله الرحمة من قلبه فقال يا مسرور إذا ادلهم الظلام فأتنى بعشرة من أقوياءِ الفعلة ومعهم خادمان قال نعم فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعهُ الفعلة والخادمان فقام الرشيد وهم بين يديهِ حتى أتى المقصورة التى فيها أختهُ فنظر إليها وهى حامل فلم يكلمها بشىء ولم يعاتبها على ما فعلت وأمر الخادمين بإدخالها فى صندوق كبير فى مقصورتها بعد قتلها ووضعها بحليها وثيابها كما هى وقفل عليها، وقد علمت أنهُ بعد قتل أرجوان لاحقها بهِ، فلما علم أنهُ استوثق بها دعا الفعلة ومعهم المعاول والزنابيل فحفروا وسط تلك المقصورة حتى بلغوا الماء وهو قاعد على كرسى ثم قال: حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه إلى تلك الحفرة ثم قال ردُّوا التراب عليهِ ففعلوا وسدوا الموضع كما كان ثم أخرجهم وأقفل الباب وأخذ المفتاح معهُ وجلس فى موضعه والفعلة والخادمان بين يديهِ ثم قال: يا مسرور خذ هؤلاء القوم وأعطيهم أجرتهم، فأخذهم مسرور وجعلهم فى حد السيف وضبط عليهم بعد أن أثقلهم بالصخر والحصى ورماهم فى وسط دجلة ورجع من وقته فوقف بين يديه فقال: يا مسرور فعلت ما أمرتك به، قال: دفعت لهم أجورهم، فرفع إليه مفتاح البيت وقال: احفظهُ حتى أسألك عنه وامض الآن وانصب فى المحل القبة التركية، ففعل ذلك ووافاه قبل الصبح ولم يعلم أحد ما يريد.

فلما جلس فى مجلسهِ وكان عصر الخميس يوم موكب جعفر قال: يا مسرور لا تتباعد عنى، ودخل الناس فسلموا عليه ووقفوا على مراتبهم ودخل جعفر بن يحيى البرمكى فسلم عليه فردَّ عليه السلام أحسن ردٍّ ورحب بهِ

وضحك في وجهه وجلسُ فى مرتبته، وكانت مرتبتهُ أقرب المراتب إلى أمير المؤمنين، ثم حدثهُ ساعةً وضاحكه فأخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحى فقرأها عليهِ وأمر ونهى ومنع وأنفذ الأمور وقضى حوائج الناس ثم استأذن جعفر فى الخروج إلى خراسان فى يومهِ ذاك، فدعا الرشيد بالمنجم وهو جالس بحضرته فقال الرشيد: كم مضى من النهار، قال ثلاث ساعات ونصف، وحسب لهُ الرشيد بنفسهِ ونظر فى نجمهِ فقال يا أخى هذا يوم نحوسك وهذه ساعة نحس ولا أرى إلاَّ أنهُ يحدث فيها حادث ولكن تصلى الجمعة وترحل فى صعودك وتبيت فى النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق بالنهار فإنهُ أصلح من اليوم، فما رضى جعفر بما قالهُ الرشيد حتى أخذ الإصطرلاب من يد المنجم وقام فأخذ الطالع وحسبهُ لنفسهِ وقال: والله صدقت يا أمير المؤمنين إن هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجمًا أشد احترامًا ولا أضيق مجرى من البروج فى مثل هذا اليوم، ثم قام وانصرف إلى منزلهِ والناس والقوَّاد والخاص والعام من كل جانب يعظمونهُ ويبجلونهُ إلى أن وصل إلى قصرهِ فى جيش عظيم وأمر ونهى وانصرف الناس، فلم يستقر بهِ المجلس حتى بعث إليهِ الرشيد مسروراً وقال لهُ امضِ إلى جعفر وائتنى بهِ الساعة وقل لهُ وردت كتب خراسان هذا دخل الباب الأول أوقف الجند وإذا دخل الباب الثانى أوقف الغلمان وإذا دخل الباب الثالث فلا تدع أحدًا يدخل معهُ من غلمانهِ بل يدخلهُ وحدهُ فإذا دخل فى صحن الدار فمل بهِ إلى القبة التركية التى أمرتك بنصبها فاضرب عنقهُ وائتنى برأسهِ ولا توقف أحدًا من خلق الله على ما أمرتك بهِ ولا تراجعنى فى أمرهِ، وإن لم تفعل ما ذكرت أمرت من يضرب عنقك ويأتينى برأسك ورأسهِ جملةً وفى دون هذا كفاية وأنت أعلم، وأسرع قبل أن يبلغهُ الخبر من غيرك، فمضى مسرور واستأذن على جعفر فدخل وقد نزع ثيابهُ وطرح نفسهُ ليستريح، فقال سيدى أجب أمير المؤمنين، فانزعج وارتاع منهُ وقال: ويلك يا مسرور أنا فى هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر، قال وردت كتب من خراسان يحتاج أن تقرأها، فطابت نفسهُ ودعا بثيابهِ فلبسها وتقلد بسيفهِ وذهب معهُ، فلما دخل

من الباب الأول أوقف الجند وفى الثانى أوقف الغلمان فلما دخل من الباب الثالث التفت فلم يرَ أحداً من غلمانه ولا الخادم الفرد فندم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنهُ الرجوع، فلما سار بإزاء تلك القبة المضروبة فى صحن الدار مال به إليها وأنزلهُ عن ـابته وأدخلهُ القبة فلم يرَ فيها إلا سيفًا ونطعًا فاستحس بالبلاء وقال لمسرور: يا أخى ما الخبر ـ فقال لهُ مسرور أنا الساعة أخوك وفى منزلك تقول لى ويلك أنت تدرى ما القضية وما كان الله ليهملك ولا لينفعك، فقد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك إليه الساعة، فبكى جعفر وجعل يقبل يدى مسرور ويقول: يا أخى يا مسرور قد علمت كرامتى لك دون جميع الغلمان والحاشية وإن حوائجك عندى مقضية فى سائر الأوقات وأنت تعرف موضعى ومحلى من أمير المؤمنين وما يوحيه إلىَّ من الأسرار ولعل أن يكونوا بلغوهُ عنِّى باطلاً وهذه مائة ألف دينار أحضرها لك الساعة قبل أن أقوم من موضعى هذا ودعنى أهيم على وجهى، فقال لا سبيل إلى الحياة أبدًا، قال توقف عنى ساعة وارجع إليه وقل له قد فرغت مما أمرتنى به واسمع ما يقول وعد فافعل ما تريد، فإن فعلت ذلك وحصلت لى السلامة فإنى أشهد الله وملائكتهُ أنى أشاطرك فى نعمتى مما ملكتهُ يدى وأجعلك أمير الجيش وأملكك أمر الدنيا، ولم يزل به وهو يبكى حتى طمع فى الحياة، فقال لهُ مسرور ربما يكون ذلك، وحلَّ منطقتهُ وأخذها ووكل به أربعين غلامًا من السودان يحفظونهُ، ومضى مسرور ووقف بين يدى الرشيد وهو جالس يقطر غضبًا وفى يده قضيب الولع ينكت به فى الأرض فلما رآه قال لهُ ثكلتك أمك ما فعلت فى أمر جعفر، فقال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك فيه، فقال فأين رأسهُ، فقال فى القبة قال فأتنى برأسه الساعة، فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهلهُ أن يصلى الثانية حتى سلَّ سيفه الذى أخذه منهُ وضرب عنقهُ وأخذ رأسهُ بلحيته فطرحهُ بين يدى أمير المؤمنين وهو يشخب دمًا.

فنظر الرشيد إلى الجلاد وقال: ائتنى باثنين من الجنود فأتاه بهما فقال لهما: اضربا عنق مسرور فإنى لا أقدر أن أرى قاتل جعفر، ثم تنفس

الصعداء وبكى بكاءً شديداً وجعل ينكت فى الأرض أثناء كل كلمة ويقرع أسنانهُ بالقضيب ويخاطبهُ ويقول: يا جعفر ألم أحلك محل نفسى يا جعفر ما كافأتنى ولا عرفت حقى ولا تفكرت فى صروف الدهر ولا حسبت تقلبُ الأيام واختلاف أحوالها، يا جعفر خنتنى فى أهلى وفضحتنى بين العرب والعجم يا جعفر أسأت إلىَّ وإلى نفسك وما تفكرت فى عواقب أمرك ولم يزل على هذا الحال طوراً ينكت الأرض وتارَة يخاطب رأس جعفر إلى أن آن وقت صلاة الظهر فخرج إلى الجامع وصلى بالناس جماعةً ثم التفت إلى قصور جعفر ودورهِ وأقبل على أبيهِ وأخيهِ وجميع أولاد البرامكة ومواليهم وغلمانهم واستباح مالهم وأمر بسلب جميع ما لهم من المضارب والخيام والسلاح وغير ذلك، فلما أصبح يوم السبت إذا هو قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو ألف إنسان وترك من بقى منهم لا يرجع إلى وطنهِ وشتت شملهم فى البلاد ولم يقدر أحد منهم على كسرة خبز.

ثم وجه إلى مدينة الرسول ﷺ فأتى بالصبيين ولدى جعفر من أختهِ العباسة فأُدخلا عليهِ فى بيته فلما رآهما أعجب بهما وكانا فى نهاية من الحسن والجمال فاستنطقهما فوجد لغتهما مدنية وفصاحتهما هاشمية وفى ألفاظهما عذوبة وبلاغة، فقال لكبيرهما ما اسمك يا قرة عينى؟ قال الحسن، وقال للصغير: ما اسمك يا حبيبى؟ قال الحسين، فنظر إليهما وبكى بكاء شديداً، ثم قال: يعزُّ علىَّ حسنكما وجمالكما لا رحم الله من ظلمكما، ولم يدريا ما أراد بهما ثم أمر الجلاَّد بأخذهما إلى الأودة المعهودة وبقتلهما ودفنهما مع أمهما فى الحفرة وهو مع ذلك يبكى بكاءً شديداً حتى ظنَّ أنهُ رحمهما، وأمرَ بعد ذلك ألا تذكر البرامكة فى مجلس لأن ذلك كان مثيراً لأشجانه مجدداً فى قلبهِ عوامل الأسى، وكان قتل جعفر بن يحيى فى ليلة السبت أول ليلة من صفر سنة ١٨٧ وهو ابن سبع وثلاثين سنة.

* * *

مقتل خالد بن جعفر

قال أبو عبيدة: كان الذى هاج الأمر بين الحارث بن ظالم وخالد بن جعفر أن خالد بن جعفر أغار على قوم الحارث بن ظالم وهم فى وادٍ يقال لهُ حراض فقتل الرجال والحارث يومئذ غلام، وكانت نساءُ بنى ذبيان لا يحلبن النعم، فلما قتلت رجالهنَّ طفقنَ يدعون الحارث فيشد عصاب الناقة ثم يحلبنها ويبكين رجالهنَّ ويبكى الحارث معهنَّ فنشأت فى قلبهِ العداوة والبغضاء.

وأما خالد بن جعفر فإنهُ مكث برهة من دهره إلى أن أتى النعمان بن المنذر ملك الحيرة لينظر ما قدره عنده وأتاه بفرسٍ فلقى عنده الحارث بن ظالم وقد أهدى لهُ فرسًا فقال: أبيت اللعن نعم صباحك وأهلى فداؤُك هذا فرس من خيل بنى مرَّة لن يؤْتى بمثله، ولقد كنتُ أرتبطهُ لغزو بنى عامر بن صعصعة، فلما كرمتَ خالدًا أهديتهُ إليك، وقال الربيع بن زياد العبسى فقال: هذا فرس من خيل بنى عامر ارتبطت أباه عشرين سنة لم يخفق فى غزوةٍ ولم يتعب فى سفرٍ وفضلهُ فى هذين الفرسين كفضل بنى عامر على غيرهم، فغضب النعمان عند ذلك وقال: يا معشر قيس أىّ خيلكم أشباهنا، أين التى أذنابها كالكلاب تعالك اللجم فى أشداقها تدور على مذاودها كأنما يقضمن حصًى، قال خالد: زعم الحارث أبيت اللعن أن تلك الخيل خيلهُ وخيل آبائهِ، فغضب النعمان عند ذلك على الحارث بن ظالم، فلما أمسوا اجتمعوا يشربون فقال خالد لقينة تغنى:

دارٌ لهند والرباب وفرتنى ولبئس قول حوادث الأيام

وهنَّ خالات الحارث بن ظالم، فغضب الحارث بن ظالم حتى امتلأ غيظًا وغضبًا وقال: ما تزال تتبع أولى بأخرة، ثم إن النعمان بن المنذر دعاهم بعد ذلك وقدم لهم تمرًا، فطفق خالد بن جعفر يأكل ويلقى نوى ما يأكل من التمر بين يدى الحارث، فلما فرغ القوم قال خالد بن جعفر أبيت اللعن انظر إلى ما بين يدى الحارث بن ظالم من النوى فما ترك لنا تمرا إلا أكله.

فقال الحارث أما أنا فأكلتُ التمر وألقيت النوى، وأما أنت يا خالد فأكلتهُ بنواه، فغضب خالد وكان لا ينازع فقال: تنازعنى يا حارث وقد قتلت قومك وتركتك يتيمًا فى حجور النساء، فقال الحارث ذلك يوم لم أشهده وحسبى ما أنا عليه الآن، فقال خالد فهلا تشكر لى إذا قتلت زهير بن جزيمة وجعلتك سيد غطفان، قال بلى أشكرك على ذلك، فخرج الحارث بن ظالم إلى بنت عفزر فشرب عندها وقال لها أنشدى:

تعلم أبيتَ اللعن أنى فاتكٌ ... من اليوم أو من بعده بابن جعفرِ
أخالد قد نبهتنى غير نائمٍ ... فلا تأمنن فتكى مدى الدهرِ واحذرِ
أعيرتنى أن نلت منا فوارسًا ... غداة حراضٌ مثل جناتِ عبقرِ
أصابهم الدهر الخؤون بخترة ... ومن لا يقِ الله الحوادث يعثرِ
فعلك يومًا أن تنوءَ بضربةٍ ... بكفٍّ فتى من قومه غير جيدر
يعضٌّ بها عليا هوازنَ والمنى ... لقاءَ أبى جزء بأبيض مبتر

فبلغ خالد بن جعفر قوله فلم يحفل به، فقال عبد الله بن جعدة وهو ابن أخت خالد وكان رجل قيس رأيًا لابنه: يا بنى ائت أبا جزء فأخبره أن الحارث بن ظالم سفيه موتور فأخف مبيتك الليلة فإنهُ قد غلبهُ الشراب، فإن أبيت فاجعل بينك وبينه رجلاً ليحرسك، فوضعوا رجلاً بإذائه، ونام ابن جعدة دون الرجل، وعرف أن عروة وابن جعدة يحرسان خالدًا، فأقبل الحارث فانتهى إلى ابن جعدة فتعداه ومضى إلى الرجل وهو يحسبهُ خالدًا فأكب عليه حتى أعدمهُ الرشاد ثم مال إلى خالد وهو نائمٌ فضربهُ بالسيف فقتلهُ، فقال لعروة: أخبر الناس أنى قتلت خالدًا، وقال فى ذلك:

ألا سائل النعمان إن كنت سائلاً ... وحىَّ كلاب هل فتكتُ بخالدِ
عشوت إليه وابن جعدة دونه ... وعروة يكلا عمهُ غير راقدِ
وقد نصبا رجلاً فباشرت جوزه ... بكلكل مخشى العداوة حاردِ
فأضربهُ بالسيف يافوخَ رأسهِ ... وصمصم حتى نال نيط القلائدِ
وأفلت عبد الله منى بذعرهِ ... وعروة من بعد ابن جعدة شاهدى

* * *

موت يحيى بن خالد البرمكى

لما طالت مدة سجن يحيى بن خالد كتب إلى هارون الرشيد كتابًا نصهُ: «إلى أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين هارون الرشيد من عبد أسلمتهُ ذنوبهُ وأوبقته عيوبه ومال به الزمان ونزل به الحدثان فعالج البؤس بعد الدعة وافترش السخط بعد الرضى واكتحل السهاد بعد الهجود ساعتهُ شهر وليلتهُ دهر قد عاين الموت وشارف الفوت جزعًا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفًا على ما فات من قربك لا على شيء من المواهب لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك يا مولاى وأما ما جناه ولدى خالد على نفسه فذاك أمر قدر فكان وأنت براءٌ منه يا أمير المؤمنين، فانظر فى أمرى جعلت فداك وليمل هواك بالعفو عن ذنبى ولسوف تبدى لك الأيام براءة ساحتى وحقيقة أمرى والسلام»، ثم اختتمها بهذه الأبيات:

يكفيك ما أبصرت من ذلى وذل مكانيه
وبكاء فاطمة الكئيـ ـبة والمدامع جاريه
ومقالها بتوجع وا سوأتى وشقائيه
من لى وقد غضب الزما ن على جميع رجاليه
يا لهف نفسى لهفها ما للزمان وما ليه
يا عطفة الملك الرضا عودى علينا ثانيه

فلما بلغ كتابه أمير المؤمنين أهمله ولم يجبه عليه، فاعتل يحيى وزادت آلامه حتى شعر بدنوّ الأجل فكتب رقعة إلى الرشيد أوصى السجان بأخذها بعد مفارقة روحه الجسد وفيها ما يأتى: «قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل، وأنت على الأثر، والله حكم عدل»، فلما مات يحيى وبلغ الرشيد تلك الرقعة حزن عليه غاية الحزن وندم على ما بدا منه.

* * *

رثاء بنى برمك لسليمان بن برمك

أُصبت بسادة كانوا عيونًا ... بهم نسقى إذا إنقطع الغمامُ
فقلت وفى الفُؤَادِ ضريم نارٍ ... والمعبرات من عينى انسجامُ
على المعروفِ والدنيا جميعًا ... ودولة آلَ برمك السلامُ
جزعتُ عليك يا فضل بن يحيى ... ومن يجزع عليك فلا يلامُ
هوت بك عن أنجم المعروف فينا ... وغرٌّ بفقدك القوم اللئامُ
ولم أرَ قبل قتلك يا ابن يحيى ... حسامٌ قدّه السيفُ الحسامُ
برينَ الحادثاتُ لهُ سهامًا ... فغالتهُ الحوادثُ والسهامُ
ليهن الحاسدين بابن يحيى ... أسيرٌ لا يضيم ويستضامُ
وإن الفضل بعد رداء عزٍّ ... غدا ورداؤه ذالٌ ولامُ
وقد آليتُ معتذرًا بنذرٍ ... ولى فيما نذرتُ بهِ اعتزامُ
بأن لا ذقتُ بعدكمُ مدامًا ... وموتى أن يفارقنى المدامُ
أألهو بعدكم وأقرُّ عينًا ... علىّ اللهو بعدكم حرامُ
وكيف يطيب لى عيشٌ وفضل ... أسيرٌ دونه البلدُ الشآمُ
وجعفر ثاويًا باللحد أبلت ... محاسنهُ السمائم والقنامُ
أمرُّ به فيغلبنى بكائى ... ولكن البكاءَ لهُ اكتتامُ
أقولُ وقمتُ منتصبًا لديهِ ... إلى أن كاد يفضحنى القيامُ
أما والله لولا خوف واشٍ ... وعينٌ للخليفة لا تنامُ
لطفن بركن جزعك واستلمنا ... كما للناس بالحجر استلامُ

* * *

وقيل فيهم من مرثية

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من يجزى ومن كان يجتدى
فقل للمطايا قد أمنت من السرى ... وطىء الفيافى فرقدًا بعد فرقدِ

obeikandi.com

وقل للمنايا قــد ظفرتِ بجعفرٍ
ولن تظفرى من بعــدهِ بمسودِ
وقل للعطـايا بعـد فضلٍ تعطلى
وقل للرزايا كـل يومٍ تجــددى
ودونـك سيـفًا هاشميًا مهنَّـــداً
أصيبَ بسيـفٍ هـاشمىٍّ مهنَّــدِ

* * *

obeikandl.com